روايات عالمية

من الشرق والغرب

الإفريقى



الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر
الإسكندرية

إهـــــــداء2006
الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر
الإسكندرية

روايات عالمية

العدد رقم ٢٤٨



للكاتب الافريقي

ويليم كونتون

ترجمة

حسن ابراهيم

بين عالمين

كان « كيسيمي كامارا » واحدا من هؤلاء الاطفال الذين ولدوا في الغابة الافريقية . وقد وقع عليه الاختيار من بين الكثير من اخوته واخواته ليتلقى العلم في مدارس الارسالية ، وقد رشحته عقليته المتسائلة المنقبة الباحثة وذكاؤه الوقاد لاحدى المنح الدراسية التي هيأت له سبيل الالتحاق باحدى الجامعات البريطانية .

وظهرت في حياته مأساة حب اليمة ، عصرت قلبه عصرا ولفحته ألما . وفتحت عينيه وقلبه الى تلك الهوة الواسعة من الخلاف بينه وبين عالم الرجل الابيض .

وعاد الى افريقيا وفي نفسه رغبة واحدة ، هي أن يقف الى جانب قومه في كفاحهم . فتخلى عن ملابس الرجل الابيض وأقسم أن يكون لقومه دون سواهم .

وبدأ بالاشتراك مع حفنة من الشباب المتحمس في تكوين حزب سياسي أصبح بما وصل اليه من قوة وما حظي به من تأييد رمزا للأماني الوطنية التي تتمثل في رغبة الشعب في أن يعيش حرا وعلى قدم المساواة في عالم يضم البيض والسود .

- ١ -

اسمى كيسيمى كامارا

شهدت قرية « لوكو » احدى قرى مستعمرة « سونجهاى » احدى مستعمرات غرب أفريقيا البريطانية ، مولدى فى فصل الامطار العالية .

ويعيش والدى على فدان من الارض الحمراء المجهدة حول كوخنا ، وعلى صيد الاسماك من مجرى مائى ضحل قريب من كوخنا ايضا . ويعتصر من هذين المصدرين . أرزاقنا .

وانا الابن الثانى والطفل الخامس فى عائلة مكونة من احد عشر شخصا ، ولم تكن طفولتى طفولة مدللة . افسدها الاسراف فى الحنان .

ومنذ ان وعيت للدنيا ، وانا غالبا ما يتردد فى أذنى مزاعم الاجانب بأننا شعب كسول متراخ لا يلقى بالا لما يدور حوله ، فى حين ان ذكرياتى المبكرة . تعى تماما تلك المواكب التى لاتنقطع من النساء والرجال الكادحين هنا وهناك فى القرية ، يطبخون أو يكنسون أو يبنون أكواخهم أو يزرعون ويحصدون .

واذكر أنه قلما كانت تتاح لهم فرصة الراحة أو الاسترخاء قبل غروب الشمس فقد كان يومهم بطوله . يوم عمل دائب لايعرف الراحة ولا الكسل .

واذكر منظر الامهات يحملن أطفالهن فوق ظهورهن .ويحاولن اغرائهم على النوم . على نغمات دق الارز .

ولن انسى تلك الارجوحة التى كانت تتدلى من سقف « الشرفة » أمام كوخنا وتلك الاوقات السعيدة التى أمضاها والدى فيها فى ساعات الراحة .

والذى أذكره أيضا ان السعى الى مزيد من الرزق لم يتح لامى سبيلا الى الراحة . فبجانب ما كانت تقوم به من الاعمال المنزلية ..كانت تدير محلا لبيع مشروب البلح . ومحلا لبيع الملح

والفواكه الطازجة والفول السوداني . وكانت تتخذ من الحائط الطيني الواطيء ، للشرفة ، الامامية في كوخنا - مكانا لمباشرة اعمالها .

فاذا سارت الامور على مايرام ، كانت تضيف الى بضاعتها الوانا اخرى من الاطعمة المحفوظة .. وكان الوعاء الذى تحتفظ فيه بنقودها . يرن ويجلجل فرحا بالمزيد من تلك النقود .

وكان منزلنا يقع فى مدخل القرية .

وقد يحدث بين الحين والآخر ان تقترب احدى سيارات الركاب او « اللوريات » من قريتنا اما لتزويد الرادياتير بالماء . او ليطفيء سائقوها وركابها من ظمئهم ، وكان هذا الحادث بالنسبة لنا - كأطفال - من الحوادث الجسام . وقد يمتد الحديث بيننا عنه سنوات طوال ، سواء عن سائق السيارة او عن محركها ،وكنا نتساءل فيما بيننا ، هل لذلك السائق هدف يسعى اليه ويقف عنده ؟ او انه يسير هكذا بلا هدف ؟ وكنا نتفحص ذلك المحرك الذى كنا نعتقد أن به مسا من قوة خارقة جبارة .

وكنا ايضا نتطلع الى ذلك السائق المتشامخ فى جلسته فى مقدمة السيارة . ونتصور قسيسا له مقامه العالى ، وله قدرة التحكم فى تلك القوة الجبارة ، وكنا نقدم الى الواحد منهم قدرا من مياه الآبار التى تنز طينا فى صفيحة الكيروسين بنفس الوقار الذى يقدم به الشماس الماء المقدس الى القسيس . وكنا ننظر الى ركاب السيارة الذين غطتهم الاتربة ، نظرة الاستخفاف لانحسدهم ولا نبغضهم . فقد كانوا يبدون امامنا كالتائهين . سواء ركاب الدرجة الاولى او ركاب الدرجة الثانية .

وما من واحد منا كان يسمح لنفسه أن يبتعد عن القرية ولو مسافة ياردات على ظهر هذه البدع الآلية . فقد كان عالمنا الذى نعيش فيه عالما آمنا . وكنا نعتقد بأن هؤلاء الذين تنهب بهم السيارات الارض نهبا . قد جاءوا الينا من عالم ينقصه الامن والسلامة وانهم قد يكونون اما مردة او شياطين .

ويبدو انه قد ظهر فى طفولتى المبكرة . ما يدل على اننى كنت على شيء من الذكاء . فقد قررت عائلتى ان التحق بمدرسة الارسالية فى القرية وكنت انا الطفل الوحيد فى العائلة الذى ينال ذلك التقدير ، وربما كان السبب فى ذلك ايضا . تلك القصص التى كنت ارويها ونحن اطفال نجلس القرفصاء على الارض امام كوخنا ، فقد كانت القصص طويلة ومعقدة وتثير الانتباه اما اخى الاكبر فقد كان اكثر منى براعة فى مساعدة امى وخدمة عملائها اذ كان لايخطىء فى عد النقود وتسليم الباقى منها الى العملاء . وكان احد اخوتى الصغار بارعا فى الدق على الطبول .

***

ولست اذكر ان موضوع التحاقى بمدرسة الارسالية كان موضع حديث او مناقشة مع والدى . ولكن الذى اذكره انه فى صباح ما ، ايقظنى والدى قائلا « اسمع ياكيسيمى » . ارتد الآن احسن ملابسك . واغسل قدميك وتعال معى .

ويبدو اننى كنت فى العاشرة من عمرى فى ذلك الوقت ، فقد كنت ابلغ من الطول الحد الذى يجعلنى اصل الى مكان الاشياء الموضوعة فوق سور « الشرفة » من مكانى على الارض .

وارتدى والدى احسن ثيابه . بنطلونه الكاكى وقميصه المخطط باللونين الازرق والابيض وتوجهنا الى المدرسة التى تشرف عليها الارسالية الامريكية والتى تقع فى الجانب الآخر من القرية وعلى مسيرة ميلين من منزلنا .

***

وعندما لامست قدمى المدخل الرحب للمدرسة انتابتنى مشاعر من الدهشة والفخر وربما كان الشعور الثانى هو الذى طغى على ما عداه .

كنت اعرف معظم اطفال المدرسة ، وكان الموقف فى تلك المدارس يختلف عن مثيله فى المدارس الانجليزية ففى المدارس الانجليزية كانت الاسئلة التى توجه الى الاطفال الجدد اسئلة

تافهة جافة : تدور حول عدد النخل الذى يملكه والد الطفـل وهل سبق له ان توجه الى المدينة . اما فى المدارس الامريكية . فقد كانت الاسئلة تدور حول المدرسة التى تلقى فيها الطـالب علومه قبل الآن ».

***

وترتسم الآن فى مخليتى ، المدرسة الامريكية التى قامت من مقعدها فى ركن الحجرة لترحب بنا عند وصولنا فى ابتســامة مشرقة . كان جمالها فائقا وبشرتها بيضاء موردة . وكان ذلك كله يغريتى على أن المسها . وعندما بدأت فى الحديث . بدا على صوتها طابع الجد والاهتمام . ووجد الطفل الذى دعتــه الى ترجمـة الدرس الاول صعوبة فى تفهم ماكانت تتفوه به . وانه ليدهشنى الآن تلك السرعة التى تمكنا بها جميعا من التحدث بنفس اللغـة العجيبة التى كانت تتحدث بها . وبنفس النطق واللهجة ».

***

وهكذا دفع بى والدى الى طريق العلم .. ذلك الطريق الطويل الذى لانهاية له ، وكان كل حجر فيه علامة تشير الى المستقبل ، وكل خطوة كالحافز الذى يشــحذ شــهية العقـل الى العــلم والمعرفة .

وفى تلك المدرسة .. وفى الوقت الذى كنت اتلهف فيــه الى معرفة معنى ماتتحدث به مدرستنا . بدا لى لأول مرة اننى قبضت بيدى على وميض من أمل وهو الامل الذى بدا لى مثيرا وجذابا وسر جاذبيته فى غرابته . وان معظمنا نسى فهمه . أو على الاقل، نسى معلمونا فهمه أيضا ».

***

بدا معظم الاطفال يتعلمون بسرعة وآلينا على انفسنا أن يكون الحديث بيننا بالانجليزية . فى كل مكان وعلى قدر المســتطاع ». واخذنا نحفظ كلمات كتاب التراتيم معنى وهجاء التى كانت أول الجوائز التى تمنح لنا . وكنا ـ بعد انتهاء الدراسة ـ نجلـس

الساعات الطوال يختبر كل منا زميله . سواء فى الكلمات أوالارقام أو فى القواعد .

***

وفى يوم ما . عرضت علينا مدرستنا « شوارتز » انها ترغب فى ان يعيش واحد منا معها لمساعدتها فى شئون المنزل . بعدانتهاء الدراسة ، وقد فوجئت « شوارتز » بنا جميعا وقد تطوعنا لهذا العمل . وبعد ان استعادت هدوءها . وتمكنت من تهدئة صيحاتنا وامرتنا ان نخفض أيدينا التى لوحنا بها لنعلن تطوعنا . جاءت اللحظة المثيرة التى سكنت فيها انفاسنا وهى تتطلع الى وجوهنا المتلهفة نحوها .

ولست ادرى ما هى الدوافع التى جعلتها تختارنى انا لهذا العمل . وان كنت كثيرا مالاحظت انها تبدى نحوى مزيدا من العطف . وهو الشعور الذى يلاحظه الاطفال بسرعة أكثر من غيرهم .

***

قالت الآنسة شوارتز « اسمع ياكيسيمى » يمكنك أن تأتى، ولكن يجب ان تبلغ والديك اولا ، ثم عليك أن تتذكر بأن بقاءك معى . رهين بسلوكك وتصرفاتك .

***

وكانت امسية اول يوم فى منزل شوارتز امسية مشهورة لم يغمض لى فيها جفن لشدة تاثرى عندما كنت افكر فى هذا الحظ الذى هبط على من السماء . فقد أصبحت قريبا من مدى مسمع « انجليزية » شوارتز وأصبح لى حق الاطلاع على كتبها واتوجه معها الى العاصمة « ساجرسنا » او ابعد من ذلك بكثير .

كل هذه الصور البهيجة أنعشت عقلى الى ساعة متأخرة من الليل . ورحت بعد ذلك فى نوم هنىء . تغمرنى السعادة التى تفوق الوصف . ثم غطيت نفسى تفاديا من الناموس . ورحت ، هانئا فى دثارى . فى نوم عميق .

لقد افادنى كثيرا وجودى مع « شوارتز » فالى جانب التحسن الذى طرا على تعلمى الانجليزية . فقد تعلمت الكثير عن العالم الخارجى . وبدات أدرك أن ثمة حواجز اعلى واشد صعوبة من حواجز اللغة واللون .

***

لم تكن شوارتز تعيش وحدها ، بل كانت تشاركها فى سكنها طبيبة أخرى امريكية هى الدكتورة « كوستيللو » التى كانت تشرف على عيادة طبية فى قرية أخرى . تستخدم فى الوصول اليها دراجة .. فى الذهاب والاياب ..

***

كانت تبدو عليها علائم الحزن . على خلاف ما كانت تبدو عليه النساء فى منازلنا من البهجة وراحة البال وقد لاحظت انهما لاتتيحان لانفسهما فرصة للراحة ولا تنعمان بالدعة التى تتمتع بها نساؤنا . وكانت أحاديثهما كلها مصطنعة لا اثر للحياة فيها .

ومن بين الفرص القليلة التى احسست فيها بانفعالهما العميق الصادق . وهى الانفعالات التى كانتا لاتستطيعان أو لاتحاولان اخفاءها هى أوقات الصلاة اليومية أو فى الاوقات التى كانتا تقومان بها لمسكن مساعد القومسيير المحلى الجديد .

***

وكانت الصلاة اجبارية بالنسبة لى ولم يكن ذلك لأن هناك من يحثنى على حضورها بانتظام . ولكن لأننى صممت على أن امتص كل فرصة لزيادة معرفتى بالانجليزية حتى ولو كان ذلك من مجرد استماعى للصلاة .

***

ولقد ادركت من هذه اللحظات التى تطلعت فيها الى شوارتز وزميلتها كوستيللو . وهما تصبان روحيهما صبا فى حب الله ، فى حجرة الصلاة التى لاتنيرها الا مصابيح الكيروسين . ومن هذا

الاستغراق الذى سحرنى منهما . ادركت أن وراء هذا الاستغراق المثير . يكمن الجواب عن سؤال . وهو الغرض من مجيئهما الى هذه البلاد .

لقد تخيلت فى تلك اللحظات انهما فى استغراقهما قد قطعـا صلتهما بالحاضر ولم ادرك الا بعد وقت طويل ، ان الماضى وحده هو الذى كانتا تحاولان نسيانه عبثا .

***

وكثيرا ما كنت اتطلع اليهما . واشاهد على محياهما علامات التألق تبدو فى قناعة ورضا ، وكانت الكلمات تتدفق من شفاههما فى سيل لاينقطع ، وغالبا ما كان يغيب عنى فى تلك اللحظـات ، اهتمامى بالاشتقاقات واللهجات وكان هذا الاغراق فى الورع يسلب لبى فكنت بدورى أروح فى غمرة من العبادة بلغتى وبنفس الفصاحة والبيان اللذين تؤديان بهما عبادتهما . وكان هذا يثير دهشتهما فيقولان « فليباركك الله ياكيسيمى » .

***

كانت أول زيارة يقوم بها مساعد القومسيير المحلى . فى الوقت الذى اصبحت فيه أحد افراد العائلة . وقد بدات الزيارة الاولى بعدم الترحاب من جانب شوارتز وزميلتها كوستيللو .

كان ذلك فى المساء . وطرق آذاننا صوت سيارة تقف فى الطريق فجفلت السيدتان . اذ كان من النادر ان تقف سيارة امام منزلهما ، وقفز من السيارة رجل طويل برونزى اللون ، يضع على رأسـه خوذة لوقايته من حرارة الشمس وبدأ يتفحص ساحة المسكن فى عظمة وكأنه وحده صاحب الحق فى الاشراف على القرية واتخذ طريقه بعد ذلك فى عزم وثبات نحو طريقه الى المسكن . وفى أقل من لمح البصر وفى سرعة عجيبة لم اشاهدها من قبـل . اختفت السيدتان فى حجرة النوم ، وتركوا لى مهمة اعداد مقعد للضيف ليستريح ولأؤكد له . فى مزيج من الانجليزية ولغة « الهوسه » ان السيدتين موجودتان .

وبعد وقت غير قصير ؟ ظهرت شوارتز وكوستيللو ؟ ويالها من مفاجاة !! لقد كان اختفاؤهما فى حجرة النوم لـكى تستبدلا ملابسهما وتخرجا الى الضيف فى اكمـل زينة . وكانت تبدو عليهما قلة الخبرة فى مثل تلك المواقف .

***

وتمر فى ذهنى الآن صورة باهتة للحديث الذى دار فى تلك الليلة ، ولكن الذى أعيه واذكره هو أن حديثهما كان أكثر بطئـا واقل ذلاقة من صلواتهما . وكانت قدرتهما فى السيطرة على عواطفهما اشد منها وهما ساجدتان فى خشوع عند الصلاة !

وبعد لحظات ، وقف الزائر مستأذنا فى الخروج ، ورفض فى كثير من الادب ان يتناول شيئا من الشراب . واسرع بالخروج فى وسط ضباب من التراب . استغرق دقيقة أو دقيقتين . ورأيت « شوارتز وكوستيللو » تراقبانه من خلال ستائر النافذة .وعلى الرغم من مظاهر الارتياح التى بدت عليهما عند رحيله . فقد بدا لى ان خديهما قد توردا قليلا على غير ما كنت أعهده فيهمـا .

وتطرق النوم الى عينى . بينما كان يترامى الى أذنى حديثهما المقتضب . وهما يتناولان الطعام ويرددان اسم السيد اندرسن !!

***

واصبح اندرسن . الاسكوتلاندى الوسيم . هو الزائرالمستديم فى الزيارات النادرة للسيدتين شوارتز وكوستيللو . وبدا على مر الايام وكأنه صاحب المنزل الى درجة أنه بعد اسابيع من زيارته الاولى . اخذ يتجه بنفسه ــ دون سابق انذار ــ الى البوفيه ؟ وهو ذلك الجزء من اثاث المنزل .. الذى لايمكن تدنيسه بأىنوع من الكحول حتى ولو كان مجرد قنينة من عصير البلح ، ويتناول مايشاء من نبيذ البلح بعكس ما كان يحدث قبل ذلك . عنـدما كانت السيدتان تقترحان عليه تقديم مشروب . فى الوقت الذى كان يهم فيه بالخروج مستأذنا لانتهاء الزيارة ..

***

ومضت سنوات ، سالت بعدها اندرسن عما وجده من متعة فى ذلك المسكن . وقد قص على تفاصيل معظم ما كان يدور فى ذلك المسكن . ولا يخامرنى شك فى ان ما قصه على قد انتزعه من الخيال والذاكرة .. ولكن اذا كان من الممكن حمل ربع تلك الحكايات على محمل الصدق . فانها تستحق أن تروى لبيان كيف أن أفراد الارساليات شأنهم فى ذلك شأن موظفى وزارة المستعمرات . يقبلون على المتعة وعلى اى لون من الوان اللهو يخفف عنهم ملل الحياة فى تلك الوحدة القاسية التى يقاسون من حرارتها فى المستعمرات .

وكما روى لى اندرسن . ان شوارتز وكوستيللو . توقفتا من اخفاء شعور الراحة التى كانتا تحسان به فى صحبته ونسيتا الفوارق بينهما وبينه ، بين حاضره المتجهم ومصيره الغامض الذى ينتظره بعد الموت وحاضرهما الهانىء الهادىء ومصيرهما السعيد الذى ينتظرهما هناك .

ووجد اخيرا ــ كما قال لى ــ متعة بريئة فى استخلاص تفاصيل حياتهما الخاصة واكتشف أن كليهما تلقى رسالة لهداية عبدة الاصنام من الافريقيين فورا الى طريق الايمان . باغرائهم واصطناع تبادل الحب بينهم فى الوقت الذى يكون فيه هؤلاء الافريقيون قد وصلوا الى مرحلة التعليم الثانوى على ان يقوم برسالة الهدى هذه . اثنان من عبدة الاصنام الامريكيين انفسهم !

***

ويقول اندرسن ايضا انه كان يتطرق فى حديثه معهما قائلا انه من دواعى الاسف الشديد أن يخلو مجلسهما من مشروب متمدين وان الحياة فى المناطق الاستوائية لايمكن تقديرها على الوجه الصحيح . الا من خلال زجاجة من مشروب الجن . وان حديثه هذا وذاك لم يأت بطائل .

***

وتكرر الزيارات . نجح بعدها اندرسن فى حمل شوارتز وكوستيللو على تناول مشروب الجن ، وسط الوان النكات التى كان يرويها ومنها قصة خادم الكنيسة الذى داب على تفتيت الخبز البائت . على ان يستبقى منه جزءا للعشاء الربانى والجزء الآخر لفطوره .

وكما روى اندرسن ايضا . ان نكاته قد قوبلت فى تلك الليلة بمزيد من البهجة . دلت عليه تلك الضحكات .

يالها من مفاجاة اخرى ! فالذى اذكره فى تلك الليلة . اننى كنت واقفا فى ركن من الشرفة . وترامى الى سمعى تلك الكلمات التى وجهتها الى شوارتز .. جو .. ما .. ذا تعلمت ؟ . فجاء جواب كوستيللو وهى تتجشأ من وطأة الخمر .. « آمين » !!

***

ولقد احزننى واذهلنى فى الوقت نفسه مارواه لى اندرسن عن احداث تلك الليلة وهى احداث لا اسمح لنفسى ان اكشف عنها الستار كما رواها لى اندرسن .

***

وبعد ساعات . استغرقت السيدتان فى سبات عميق كل على مقعده ، ووجد اندرسن نفسه . بلا وعى وهو يضع عليهما الاغطية . حماية لهما من سموم الرياح اللافحة .

- ٢ -

كان معنى « ساجرسا » ـ العاصمة ـ بالنسبة لى . عالما جديدا مثيرا . وكان عالمى هذا يقوم على مجرد تلك الروايات الملتهبة التى كان اصدقائى من سائقى اللورى يقصونها على . وعلى تلك الملاحظات التى كانت تتردد فى حديث شوارتز وكوستيللو .

وكان معناها بالنسبة لوالدى هو أن أعيش بين قوم ينظرون اليهم والدى بعين من الشك والريبة .

وكثيرا ما كان والداى يتحدثان عن ذلك الميناء الساحلى « ساجرسا » وكيف اختلط سكانه بالسكان البيض الى درجة أصبح معها سكان المدينة من الوطنيين اجانب عنها . فى لغتهم وعاداتهم على الرغم من لونهم الاسود .

وكانت هناك ايضا لحظات مظلمة . سلبنا فيها ايضا سكان ذلك الميناء . بعض أرضنا من الوطن وانضموا الى الرجل الابيض فى مناسبات شتى . شن فيها المعارك ضدنا .

ويذكر الكبار من سكان قريتنا . تلك الاوقات التى تمادى فيها الرجل الابيض مع اعوانه من سكان « ساجرسا » فى الاستبداد بنا .

وكانت هناك ايضا ثورة كبيرة قام بها شعبنا وسقط فيها الكثير من الضحايا ولم يسفر عنها تحسن فى العلاقات بيننا وبين الرجل الابيض و « الاجانب السود » من سكان ساجرسا الذين انضموا الى الرجل الابيض فى محاولة الاضرار بنا .

***

هذه هى بعض نواحى « ساجرسا » وكيف كنا ننظر اليها نحن سكان قرية « لوكو » .

***

على أن « ساجرسا » بالنسبة لتلقى تعليمى الثانوى بها . كان معناها اتاحة الفرصة لى لاكتشاف العالم والخروج من ذلك النطاق الضيق ، نطاق القرية .

وهذا هو نفس ما كان يؤمن به والدى . على الرغم من اميته . فقد كان من رايه أن أتلقى تعليما حرا وليس بجامد . الغرض منه الكشف عن المجهول ومعرفة الكثير .

***

واخيرا . توجهت الى ساجرسا . وفى مخيلتى الايام الاخيرة التى مضيتها فى قريتى « لوكو » بصورتها الواضحة الوضاءة « والمدرسة التى تعلمت فيها الكثير وأشقائى وشقيقاتى وذلك البساط الاخضر من الاشجار الذى يحيط بكوخنا هناك .

وتذكرت الى جانب ذلك « القرود » التى كانت غالبا اهدافا لقطع الحجارة التى كنا نلقى بها عليها وهى تقفز فوق أشجار المانجو الصغيرة . وقد بدا لى الآن انها تجمعت وضمت رءوسها بعضها الى بعض واخذت تتحدث فيما بينها . وكأنه قد ترامى الى سمعها ايضا ماواتانى من حظ سعيد .

ولن أنسى ايضا موقفى حينذاك . فقد اومات اليها بدورى مودعا محييا . ويبدو ان اكبرهم سنا قد رد على التحية بمثلها، كانما اراد أن يؤكد لى بدوره انهم لايضمرون لى السوء .لاعتزامى تركهم وهجرهم .

***

اما أمى .. فقد بدت أمام عينى فى ساعة الفراق وكأن كل مافيها اصبح جديدا . اذ كانت لى بمثابة بر السلامة والسلام ؟ وكان فى اعتقادى ان كل ما تمنحه لى . هو حق من حقوقى لابد لى من الاستيلاء عليه وانه من واجبها ان تمنحه لى والا تحرمنى منه .

وعندما حانت ساعة الوداع . ادركت مدى طيبة قلبها ومدى حنانها ورعايتها لأطفالها .

كانت مثال الام الطيبة العادلة . وكانت لاتزال صغيرة السن، نحيلة طويلة القامة ولها بشرة ناعمة كالابنوس وكان جمالها بلونها، تبدو كالفولاذ الازرق فى ضوء القمر .. وكان صدرها لايزال مشدودا . وقدماها ويداها تشهدان على مابذلته من اجل اولادها

كانت قدماها عريضتين من شدة ماكانت تحمله من اثقال وكانت يداها الصلبتان كثيرة الشقوق من فرط مابذلت من اجل اولادها، ولكنها مع ذلك كانت اطيب الامهات واجملهن اجمعين .

***

كان الرأى أن تقوم الارسالية بتحمل مسئولية جميع نفقات تعليمى فى « ساجرسا » ـ بعد أن أصبحت فى نظرها مصدر دعاية لها ـ وكان الاتفاق أن أشترك فى الترانيم بعد انتهاء الدراسة ، وعلى أن يتحمل والدى كسائى ومصروفى اليومى .

***

كان يوما مطيرا جدا . وفى بداية فصل الامطار عندما صعدت أنا ووالدى وشوارتز التى كانت قد عادت من أجازتها فى الولايات المتحدة . الى سيارة اللورى لتنقلنا جميعا الى ساجرسا ،واجتمع أهلى وأصدقائى لتوديعى ، وصحبنى والدى فى السيارة الى ساجرسا . وقفز المحرك ودبت فيه الحياة . وكانت شوارتز تجلس الى جوار السائق . بالدرجة الاولى فى السيارة .

وتحركت السيارة وابتلع دخانها الكثيف المودعين الذين يمثلون الوطن والحب والسلامة .

ولست أذكر الكثير عن تلك الرحلة . ولكن الذى أذكره أننى شاهدت للمرة الاولى فى حياتى قطارا للسكك الحديدية .وكانت تلك القاطرة وهى تدخن وتنفخ بمنخارها ومنظر ذلك التمساح الصغير من العربات المائلة التى تنطلق وراءها فى الطريق . كان ذلك كله رمزا لعجائب أخرى فى طى الغيب الذى قدر لى أن أسلك طريقه .

وتوقف الدفع والجذب فجاة . وخفت حدة المعركة التى كانت تدور بين أجزاء السيارة . وبدأ الموتور ينفث دخانه الذى تحول معه طريقنا من اللون الاحمر الى اللون الاسود . وأخذت السيارة فى الصعود مرة والهبوط مرة أخرى ثم بدأ الموتور يسعل ويئن ، وتوقفت بنا السيارة أخيرا . ثم عادت الى السير مرة أخرى وبعد قليل بدت لنا معالم « ساجرسا » وبعد دقائق كنا أمام باب الارسالية .

***

تنـاول الحـديث الذى دار بين والـدى وبين مراقب عام الارسالية . الترتيبات الخاصة بدخولى المدرسة وهى الترتيبات التى أعرب والدى عن رضائه عنها وامتزجت عبارة الشكر التى ابداها والدى بالهدايا التى أحضرها معه من القـرية وهى ثلاث دجاجات حية وأنواع مختلفة من الفاكهة .

***

وخرجت انا ووالدى نلقى نظرة على معالم المدينة وربما كان الطابع الذى اذكره الآن هو ذلك العدد الكبير من الناس فى سـوق المدينة الذى يتحدث معظمهم بلغة لا هى بالانجليزية ولا هى لغـة « الهوسا » لغة بلادى .

وفى « ساجرسا » رايت البحـر لأول مرة ، وكنت شان كل تلميذ فى اى مكان . ارى فى الناس وما يقـومون به من أعمـال يدويه ما يثير الدهشـة والاهتمام اكثر مما تثيره الطبيعـة من أعمال . ولكن نظرتى الاولى الى البحر الذى لا نهاية له . جعلتنى أدرك فورا أن الطبيعة وسحرها واعمالها الخارقة جديرة بالحب والتقدير والاستمتاع .

***

وخطر لى بعد سـفر والدى . ان أسـتمتع وحدى بحـرية المرور فى المدينة . وكان أول ماشاهدته ذلك البناء الضخم الذى أدركت من وجود الجنود فى زيهم الرسمى الذى قرات عن اناقته فى الكتب . انه قصر الحاكم .

ودفعنى شىء ما الى أن أقترب من أحد الجنود وأتحدث اليه بلغة بلادى « الهوسا » . ولدهشتى اجابنى الجندى بنفس اللغة . دون أن يحرك ساكنا من جسمه . وعلمت منـه أن الـكثير ممن يتكلمون لغة « الهوسا » يعملون فى الجيش . وأدركت بعد حديثى معه . انه الى جانب مشاعر الاثارة التى توقظها عثور الانسان على واحد من أهله فى بلد غريب . مشاعر أخرى أشد وأمتن . هى

مشاعر الحنين الى الوطن . وهى مشاعر تبدو خامدة . ولكنها تنتظر الفرصة السانحة لتصحو فى قلب صاحبها وتؤكدوجودها.

***

ومضيت اشاهد معالم المدينة . وقادتنى قدماى الى تل صغير شاهدت فيه سلسلة المساكن الحقيرة التى يعيش فيها جنود الجيش والبوليس . وكان منظرها مؤثرا يفوق الوصف . فهى مجرد مساحات من الاسقف متآكلة متعفنة . صفت بين اشجار الفاكهة فى العراء وتحت السماء المتوهجة .

وشاهدت فى « ساجرسا » سفن المحيط لاول مرة . وعندما بارحت الميناء . قلت لنفسى لابد لى من ركوب تلك السفن فى يوم ما لاحصل من تلك الارض البعيدة . أيا كان موقعها ، وأيا كان أهلها على المعرفة والمهارة والقوة .

***

وفوجئت عند عودتى من رحلتى الى مبنى الارسالية . برؤية والدى من جديد . نتيجة لاصطدام اللورى بشجرة وانفجار احدى العجلات .

وكانت هذه اول مرة فى تاريخ العلاقات بينى وبين والدى ، التى يرى فيها والدى ـ أن تنازلى عن اى من وسائل راحتى ـ شىء يستحق التعليق من جانبه وقد لمحت وقتها كيف أن صلة جديدة بدأت تنمو بيننا . اذ أنه حتى ذلك الحين كان الاتصال بينى وبينه خفيفا . وقد تمر أيام لانتبادل فيها أية كلمة . فيما عدا ما كان يصدره لى من أوامر اثناء العمل . وكانت امى هى التى دربتنى على أن تكون دليلى فى تصرفاتى وتوجيهاتى .

***

وأخذت استعد للامتحان التمهيدى لدخولى المدرسة الثانوية. وكانت الشهور التى امضيتها بين وصولى الى « ساجرسا » وموعد الامتحان . شهور عمل دائب لاينقطع .. انتهت بنجاحى

فى الامتحان وابلغت والدى فورا بالنتيجة . وسرعان مارد على بخطاب كتبه أحد مدرسى القدامى فى مدرسة القرية ، وقدتضمن خطاب والدى الذى اعتز به دائما . لا لأنه أول خطاب يصلنى منه . ولكن لأنه ظل على الدوام حافزا لى نحو تحقيق أطماعى وبلوغ أحلامى . تضمن ذلك الخطاب اجمل التهانى ومضى يذكرنى باننى بدأت الآن فى صعود شجرة البلح العالية الوعرة المسالك وأن الكثيرين يراقبون خطواتى واننى اذا نجحت فى تسلق الشجرة العالية . فساجد هناك فاكهة ناضجة حلوة المذاق . وحذرنى فى خطابه . بأن فشلى فى بلوغ قمة الشجرة ، سيجلب على لعنة الاحياء والاموات الذين يراقبون صعودى وصمودى .

وقال فى خطابه . انه اذا كانت غايتى من بلوغ قمة الشجرة، هو للاستمتاع بثمارها . فان نهايتى هى السقوط والموت ،ولكننى اذا بلغت القمة ثم عدت بعد ذلك الى أهلى لأتذوق معهم ثمار نجاحى . فانهم بدورهم سينشدون نغم نجاحى .

والحق . ان رسالة والدى ابعدت عنى مشاعر التعاسة والوحدة التى كانت تنتابنى خلال الفترات التى كنت أخلو فيها الى نفسى .

صحيح اننى كنت أعمل جاهدا لنجاحى . ولكن الذى كان ينقصنى هو اننى لم اكن واثقا من الاتجاه الذى يمضى فيه طريقى والهدف الذى كنت أسعى اليه . ثم جاءت رسالة والدى فوضح لى معها الهدف والغرض .

- ٣ -

يضم مدرستى الجديدة ، مبنى خاص ، كان يوما ما سجنا من السجون ، واستخدم مرة مأوى للمتسولين .

ولو كنا ــ نحن الطلبة ــ على علم بذلك التاريخ ، لأصبحت مدرستنا مادة دسمة لتبادل النكات فيما بيننا ، ولكن الذى حدث هو اننا كنا على جهل بذلك التاريخ ، وان ذلك المبنى القبيح

الشـــكل بجدرانه السميكة ، اصبح عنـــدنا موضع التقديس والاحترام .

***

كان الطابق الارضى يرتفع قليلا عن مستوى الساحة المحيطـة بالمنزل . وكان الطابق الذى يليه مكونا من حجرة كبيرة ، يمـكن بدورها أن تنقسم الى حجرات للدراسة .

أما عنابر النوم ، فتقع فى الطابق الاعلى وفى ذلك الطابق بالذات كان عدد الفئران ثلاثة أمثال عدد الطلبة ، ولـكن يبدو أن الوفاق كان سائدا بين الجانبين ، وانهما حققا فيما بينهما مبدأ التعايش السلمى .

وكان المدرسون يشاركوننا عنابر النوم ، أما ناظر المدرسـة فـكان يقيم فى مسكن فوق المبنى الرئيسى للمدرسة ، حيث توجد الكنيسة والمصطبة .

وكانت ضربات المسطرة فوق اطراف الاصابع .. هى العقوبة العاجلة لأى بادرة تهاون تبدو من الطالب داخل حجرة الدراسة .

ولم تكن اعيننا تقع على ناظر المدرسة الا لمـاما ، فيما عدا الفترات التى كنا نراه فيها فى الكنيسة .

والحق ، ان رؤياه لم تكن تشجع على أن نسعى اليهـا مرة أخرى ، فقد كان طويلا نحيلا له انف يشبه منقار النسر .. وكان يعقب العقوبة التى يوقعها على الطالب ، أن يضطر الواحد منا الى اغراق نفسه فى الماء البارد ثلاثة ايام ، فى محاولة اطفاء اللظى الذى خلفته تلك العقوبة على أجسامنا .

***

وأصبحت ــ لفترة طويلة ــ ضحية تعدد اللغات واللهجات ؟ فأنا الطالب الوحيد الذى يتكلم لغة « الهوسا » وأجهل ما عـداها من اللغات فيما عدا الانجليزية ، وكان الحديث بين زملائى ، يدور ــ عن عمد ــ بلغة سانجوسا ، وليس باللغـة الانجليزية التى كانت

لغة التخاطب . وقد استطعت أن اتغلب على هذه المشكلة . ففى نهاية العام ، كنت قد تمكنت من اتقان لغة سكان «ساجرسا» .

وفى اعتقادى ، أن اتقانى لغة « ساجرسا » لم يكن وحـــده سببا فى اكتساب احترام زملائى بل لاشك أن الذى أكسبنى ذلك الاحترام ، هو النجـــاح الذى لازمنى فى دراستى ، الى جانب الأموال التى كانت تأتينى من والدى ، لأبدو معها رشيقا فى ثيابى .

***

كان الاهتمام ضئيلا بالنواحى الرياضية فى المدرسة ، ولقد صادف هذا هوى فى نفسى ، لعدم اتقانى الكثير من تلك الالعاب .

وكنا ــ بين الحين والآخر ــ نمارس رياضة السير حول المدينة مشيا على الأقدام يشترك فى ذلك الطلبة من أصحاب العاهـــات الجسمانية .

وربما كان الضرر الوحيد النـــاشىء عن تلك الرياضة ، هو تحريك الشهية الى الطعام ، وهى الشهية التى كانت تجـد عقب وجبات الطعام المدرسية ــ شأن كل وجبات طعام فى كل مدرسة ــ ما يخيب من آمالها ، ويهد من عزيمتها ، ويوهن من قوتها !.

***

لقد لاح لى ، على ضوء الخلافات القبلية فى افريقيا ، مـــدى الاهمية العظمى للجهود الموحدة التى تبذل نحو هدف مشترك الى جانب التعليم المشترك والمشاركة فى الحياة بين افـراد القبـــائل المختلفة ، وتأثير ذلك كله فى كسر حدة النعرات القبلية وخلافاتها.

واولى الثمار التى جنيتها من هذه التجربة زوال نفور زملائى منى ، وان فتح لى أباؤهم صدورهم لى .

***

على أن الامر كان على نقيض ذلك بالنسبة لفتيات ساجرسا .. فقد بدت منهن شدة وقسوة فى التعصب لساجرسا ولغتهـا وأفرادها ..

***

وتجيء العطلة الدراسية ؟ وأسافر الى قريتي حيث يقرر والدى انضمامى الى جمعية « داو » السرية ، وهى الجمعية التى كانت الارساليات تحظر علينا الانضمام اليها .
ويتم فى تلك الجمعية ، انتقالى من مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب ، وبها ايضا تمر شقيقاتى بنفس المرحلة ، مرحلة الانتقال من الطفولة الى الشباب .

وفى هذه الجمعية يتم أيضا تدريب صبيان القبيلة والأزواج والآباء على أن يكونوا مقاتلين مهرة ، هــذا الى جانب التدريبات النظامية التى يتلقاها الكثيرون والتى تتم على مستوى عال ، والتى تؤهل أصحابها للقيام بدور له قيمته وأهميته لحماية ميراث القبيلة من الثقافة والقوة ..

وتشمل التعاليم فى جمعيتنا السرية التدريب على وسائل الدفاع عن النفس ، بل وكيف نمارس الحب ونقرع الطبول وكيف نغنى ونرقص .

وهى تعلمنا أيضا ، تاريخ القبيلة وفنونها الشعبية ، والأهم من ذلك كله ، هو قسم الولاء الأبدى نحو جميع اخوتنا واخواتنا من افراد القبيلة ونحو اجدادنا وآلهتنا .

***

وتمضى السنوات الاربع للدراسة الثانوية ؟ ويقترب موعد الامتحان النهائى ، حيث كانت ساعات المذاكرة لا تقل عن عشر ساعات ، وكنت أحرص على أن اختلط بالطلبة الذين اعرف ان مدارسهم تضم أحسن المدرسين .
ولم أكن وحدى صاحب الجهد المضنى فى الاستعداد للامتحان النهائى ، بل كان ذلك دأب جميع زملائى ..

ويجب أن يتصور الانسان معنى الحصول على « الشهادة » فى مدارس افريقيا ، فقد كان الحصول عليها يعنى ضمان الحصول على وظيفة مجزية .. وان يصبح حاملها عضوا فى الفئة المختارة التى يطلق عليها اسم « الاقليــة المتنورة » والمتفوقين الذين كانوا

بذورهم موضع فخر وبهجة الاقارب والأصدقاء ـ وكانوا ـ على النقيض من ذلك .. وكلما زاد عددهم صاروا مصدر خوف ويأس بالنسبة للمستعمرين .

***

كنا جميعا ندرك هذا ، وكان الاستعداد لدخول جامعة كابردج يستهلك كل أوقاتنا ، ولم نلق بالا الى نصائح الآباء بأن نترفق بانفسنا .. ومضى الكثيرون منا يحرقون الليالى بطولها فى المطالعة وكانت مصابيح الغاز بالنسبة لنا فى تلك الايام ، اثمن مانملك واغلى ما نحرص عليه .

***

وفى خلال السنة النهائية ، بدأ اهتمامى بالسياسة وهى المجال الذى أصبح بعد ذلك المؤثر الأصلى فى تشكيل مجرى حياتى ..

وفى ذلك العام ، أعدت جمعيـة المنـاظرة فى المدرسة ، وهى الجمعية التى كنت امينها العام ، موضوع الحكومة البلدية للمناقشة .. وكان موضوع المناظرة هو ان تلك الحكومة ، ديموقراطية شكلا وليست ديموقراطية فى الحقيقة .

وكان طرفا المناظرة على الصورة التالية : الطرف الاول يمثله أحد أعضاء البلدية ممن يقرب عمره من الاربعين يساعـده الرائد الأول من بين طلبة المدرسة ، ويتكون الطرف الثـانى من عمـدة المدينة الذى كان قد تجاوز الثامنة والسبعين من عمره يعاونه أكبر طالب فى المدرسة سنا .

ولهذا الطالب قصة طريفة ، فقـد كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكانت شهادة ميلاده من الوثائق السرية التى اخفيت تماما عن ناظر المدرسة ومدرسيها وموظفيها ، وكنا نسمع أن واحدا من اولاده يزوره خلسة ليقدم له الوانا من الاطعمة التى تصنعها له زوجته ..

***

كانت المناظرة حافلة وظريفة ، والذى اذكره أن الاوامر صدرت الينا بأن نلتزم جانب الوقار والاحترام بالنسبة لاعضاء المناظرة من كبار السن ، والواقع انه لم يكن ثمة ضرورة لاصدار مثل تلك الاوامر ، لأن احترام كبار السن وتوقيرهم عادة تأصلت فينا نحن الافريقيين ، وعلى ذلك فقد أخصبت حملات السخرية والدعابة على عضو اللجنة من الطلبة ، صاحب السبعة والعشرين ربيعا من عمره الذى قوبل بصيحات « أيها الجد » ! .. « يا متو شالح جد سيدنا نوح ! » . وقد حاول البعض منا تقديم عصا اليه ليتكأ عليها .. أو نظارة ليضعها فوق عينيه ، احتراما لسنه .. وضاعت على المسكين اية فرصة ليجرب فيها زلافة لسانه وبلاغته وسط موجات السخرية التى اغرقناه فيها .

وانصافا له ، يجب أن اقرر هنا انه أصبح موضع الفخر والاعجاب ، وهو يمشى فى صف الفائزين بالشهادة فى نهاية العام الدراسى ..

***

على أن أهمية المناظرة لا تكمن فى طرافة ما حدث فيها ، ولكنها تكمن فى تلك الحقائق المرة التى كشفت عنهـا .. وهى الى متى يظل المواطن الافريقى غير صالح للمشاركة فى الشئون العامة لمدينته أو قريتـه ..

وعلى الرغم من انهماكى فى الدراسة ؛ فقـد خرجت من تلك المناظرة بأفكار خاطفـة تركزت فى هـاتين الحقيقتين ، اولاهما أن الدساتير ليست مجرد كلام يكتب على الورق ، ولـكنها أمانة فى التطبيق .. كما أن الدسـتور المكتوب على الورق يختلف تمام الاختلاف عنه عند تطبيقه وتنفيذه لأن الوضع الاجتماعى لشعب ما يفوق فى اهميته القوانين والشرائع والدساتير عند تكوين الشـكل الفعلى للحكومة الصالحة .

والحقيقة الثانية ، هى انه قد أصبح من الصعب جدا تحميل كبار السن من الرجال مسئولية تغيير النظام السياسى القائم ، وانه فى حالة تطوير امة ما .. يجب ان ينتقل النفوذ السياسى من الجيل

القديم البالى ، الى الجيل الجديد الذى عليه أن تتحمل سواعده القوية وتطلعاته الى المستقبل ، مسئولية أحداث ذلك التغيير .

وقـــد بدا لى ذلك كله كالسراب فى تلك الايام ، على أن ذلك السراب نفسه لم يعدم أن يترك أثرا فى تفكيرنا عند ما كان الحديث بيننا نحن الطلبـــة يتطرق الى بحث اســـباب الأمراض والعلل السياسية التى كنا نعانى منها الـكثير .

***

وسالت دماء « ساجرسا » و « لوكو » فوق أرض المـدرسة وقد نشأ ذلك نتيجة للمعركة التى نشبت بينى وبين صامويل ابن ناظر المدرسة .. وهى المعركة التى حدثت قبيل الامتحان .. وفى الوقت الذى كنا فيه فى حاجة الى كل دقيقة ، والى كل خلجة من خلجات الاعصاب التى كانت قد بلغت مداها من التوتر والاجهاد.

وكان صامويل هو الذى بدا بالعدوان فقداثارنى بقوله انه على أهل الشمال ـ يقصدنى أنا ـ ان يعـودوا الى بلادهم ، ليلتمسوا هناك ما يناسبهم من وظائف . فسألته غاضبا : ولمـاذا ؟..

فكان جوابه أن تمثل بحكمة تقول : « انه على الذين لايعرفون الى اين المصير ، أن يدركوا على الأقل من أين جاءوا » ..

وكان ناظر المدرسة ـ وهو والد صامويل فى الوقت نفسه ـ عادلا فى توقيع العقوبة فلم ينج ابنه من الاربعة وعشرين جلدة التى نالها كل منا فى حجرته ، والتى اعقبها أمره الينا بأن نتصافح .. ثم نسير معا الى الشاطىء ، يراقبنا احد الطلبة .

***

والواقع ان هذا الذى حدث بينى وبين صامويل قد أسفر عن نتائج لم تكن فى الحسبان ، فقد ادرك كل منا حقيقة الخلافات التى تفصلنا.. وادرك كل منا ايضا انهذه الخلافات تعنى ضياعنا فى موجة من البؤس والاذلال .

وىمر الأيام ، لا اقابل فيها صامويل الا لمـاما ، وتجمعنا معـا حجره الدراسة ، ولم يكن بها سوانا ، ولن اقص ما دار بيننا من

حديث في تلك الحجرة .. لقد كان اكثر من محاولة تصفية الخلافات ، واهم من ذلك بكثير فقد تعاهدنا على تحقيق مثلنا الاعلى .. وهو أن تتضافر لنجعل من امتنا .. امة قادرة على بلوغ القوة والحرية ، عن طريق الوحدة ، وقد ظل ولاؤنا لهذا المثل الاعلى باقيا الى الابد .

***

وجاء الامتحان ، واعلنت النتائج ، ولم تذهب مجهوداتنا عبثا ؟ وكان «متوشالح» وهو اللقب الذى كنا نطلقه على أكبر الطلبة سنا . من أوائل المتفوقين ، واتيحت له ولى ولصديقى صامويل فرصة الحصول على المنحة الدراسية التى تؤهلنا للالتحاق بالجامعة ..

واغرقت نفسى انا وصامويل فى موجة من الفرح فتوجهنا الى تل يعلو المدرسة ، واخذنا نغنى ونغنى ، من اعماق قلوبنا وملء رئتينا.. وبلغ من فرط سرورنا واغراقنا فى الغناء أن بعض الطلبة الذين كانوا يراقبوننا ، حاولوا استدعاء طبيب المدرسة للكشف على عقولنا !

- ٤ -

وتمضى اربعة اشهر ، فتهيأ بعدها للسفر الى بريطانيا تمهيدا لدخولنا الجامعة ، وقد ابدى صامويل رغبته فى دراسة الطب ، وقررت بدورى أن أدرس الادب .

ولم يحضر والدى لتوديعى عند سفرى ، بل حضر احد اخوتى الذى سلمنى قطعة من الماس قال ان والدى يرغب فى أن احتفظ بها فى رحلتى ، وعند عودتى الى وطنى ، لاذكر معها دائما اننى احمل معى كنز محبة قومى وايمانهم بى ..

وامامى الآن وانا اكتب هذا الكتاب جزء من ذلك الحجر الكريم .. الذى اعتبره اعز ما املك .. والذى كلما نظرت اليه تراءت لى من خلاله .. المجد اللامع لقوة افريقيا وثروتها التى لا تنضب وطاقتها القوية .

والحق ، لقد اصبحت تلك الماسة بالنسبة لى ، نجم حرية افريقيا الثاقب ونورا ولهبا يوقظان المارد الافريقى من غفلته .

***

كان يوما مطيرا ذلك اليوم الذى ركبت فيه الزورق فى الطريق الى السفينة التى ستنقلنا الى الخارج .

ولست انسى ، والزورق يقطع بنا النهر .. تلك الصبية الصغيرة ، التى كانت فى سنى ، والتى انتهزت سقوط الامطار .. واخذت تستحم ـ كما هى عاداتنا ـ فى العراء ، بعيدا عن عيون الناس تغمرها السعادة التى كان يعلن عنها ضحكاتها الصادقة ، من قلب برىء هانىء تملأ بها جنبات ساحات منزلها .

وفى لحظة خاطفة لوحت اليها بيدى مودعا ، فردت على ضاحكة لاهية ، ينفرج فمها عن ثنايا فى ضوء النهار اللامع ..

ان الافريقى يهتم الاهتمام الشديد بالرمزية فى حياته ، ولقد جعلتنى هذه الصبية اؤمن بأن فى افريقيا ما يستحق أن يعود الانسان من أجله ..

صحيح انها غابت عن عينى الى الابد ، ولكنى لن انسى ابدا تلك السعادة التى كانت تغمرها ، وهى السعادة التى كان مبعثها براءة الصبا وطهارة الشباب .

ولن يحتاج الأمر الى ان اغرق نفسى فى التفاؤل ، وازعم أن فتاتنا قد زفت الى احسن ما تتمناه امرأة فى الوجود ، دون أن تضحى أو يضحى غيرها فى سبيل ذلك .

ان الكثيرين يرغبون فى امتلاك السعادة ، كاملة غير منقوصة فى غير مقابل ، سواء من اجسامهم او من ارواحهم ، وان القدرة على امتلاك السعادة بهذه الطريقة ، تعنى المزيد من الخسارة .

وغاية ما اؤمن به ، هو اننا سنفقد كل شىء اذا دفعنا ارواحنا ثمنا للاستمتاع بالحياة ..

***

واقلعت بنا السفينة ، أنا وصامويل ، ولما كنا نحن الوحيدين من « سونجهاى » اللذين يتمتعان بالمنحة الدراسية ، فقد هيأ لنا ذلك فرصة السفر بالدرجة الأولى ، وهى ميزة احيت فينا أملين أولهما : الاختلاط بالانجليز والتحدث اليهم ، ارواء لشهوة المعرفة التى كانت تتجدد عندنا كل يوم .. وثانى الأملين أن تتاح لنا فرصة الاستمتاع بالطعام الجيد بعد الذى قاسيناه من وجبات الطعام المدرسية ..

***

ان الأمل الذى كان يداعبنا ونحن نتخيل وجبات الطعام التى ستقدم الينا على مائدة السفينة ، هذا الأمل ولد ميتا ، وقد شهدنا مصرعه عندما قدمت الينا أصناف الطعام التى لا يميزها الا التفنن فى اختيار أسمائها ، دون التفنن فى اختيار أنواعها واصنافها ..

***

اما الأمل الثانى ، فكانت صدمتنا فيه اشد قسوة من صدمتنا فى وجبات الطعام ..

لقد كانت غايتنا ، من الاتصال بالانجليز والاختلاط بهم ، أن تتاح لنا فرصة دراسة عاداتهم واخلاقهم .

وكنا نتطلع الى التخلص من ذلك الجو المريض الذى جعل الاتصال بين السود والبيض على الساحل الغربى لافريقيا امرا مستحيلا ..

صحيح اننى وصامويل كنا حديثى العهد بالمدرسة .. ولكن لا جدال فى اننا كنا فى نفس عمر بعض ضباط وزارة المستعمرات البريطانية الذين كانوا يشاركوننا الطعام على ظهر السفينة ..

ويبدو لى ان الكثير منهم كان يسعده زوال تلك الحواجز العنصرية ، وكان يسعده دعوتنا الى الانضمام الى مائدتهم .. ولكن يبدو ان معنى ذلك كان يعنى الازدراء بالسلوك الاجتماعى الذى دربوا عليه ، كما انه كان يعنى تحدى القوانين غير المكتوبة

التى وضعتها شركات الملاحة والتى تقضى بمنع الاوربيين والافريقيين من الاتصال الوثيق او التمادى فيه على ظهر السفن.

***

ولن انسى ابدا ، ذلك الجهد المضنى الذى كان يبذله كبير السقاة وهو يقوم بترتيب المقاعد فى « صالة » الطعام ، ليحول دون جلوس البيض والسود على مائدة واحدة ، كما اننى لن انسى مظاهر الامتعاض التى ابداها خدم الباخرة عندما توجهت انا وصامويل الى حوض السباحة ، فى الوقت الذى كان فيه الحوض خاليا من المستحمين ..

***

ويبدو ايضا ، كأن ملاحى السفينة ، كانت لديهم تعليمات بأن يوحوا الينا انوجودنا فى الدرجة الاولى لم يكن حقا لنا حصلنا عليه .. ولكن مجرد تفضل من به علينا المسئولون ، ولا شىء غير ذلك ، وانه يجوز ان يقذف بنا ، وفى اى وقت الى مقدمة السفينة، حيث مقامنا اللائق بنا هناك ..

***

والواقع انه لم يكن من حقنا ان نتوقع القضاء على هذا الذى بدا من سقاة السفينة وضباطها .. ولكن الذى حدث هو انه فى اليوم التالى لرحلتنا .. وتفاديا من محاولة اذلالنا او عزلنا ، قررنا أن نتجنب الظهور فى اى اجتماع على ظهر السفينة ، فيما عدا قاعة الطعام ، وقد وجدنا ثلاثة من الطلبة الافريقيين على ظهر سفينتنا ، ذاقوا ايضا مرارة ما ذقناه وعانوا سوء ما عانيناه .

ومع ذلك ، فقد كنا فى ميعة الصبا ، وفى عقولنا مشاريع جديدة وعديدة ، وكانت الحماسة تملأ قلوبنا نحو مستقبل باسم .. وكان طموحنا قويا ، وكنا ندرك جميعا ان التماس السعادة مع الاجانب امر لا يمكن تحقيقه ، وان سعادتنا تكمن فى صحبة ابناء

قارتنا ؟ وعلى ذلك مضينا في استمتاعنا بالرحلة ، بكل ما فيها من جديد ومن مغامرات ..

وعند ما القت السفينة مراسيها فى « لاس بالماس » وهى آخر ميناء قبل وصولنا الى « ليفربول » .

وكنا اول الركاب الذين يغادرون السفينـة للطواف فى لاس بالمـاس ، كما كنا آخر من يصل اليها بعد انتهـاء زيارتنا لذلك الميناء ..

كنا خمسة من الطلبة الافريقيين ، وقد أضحكنا كثيرا سائق «التاكسى» الذى كان اول ما فاجانا به مجموعة من الصور الخليعة .. حاول اغرائنا على زيارة صاحباتها ، ويبـدو أن ذلك السائق قد أذهله وادهشه أن يرفض خمسة من الشبان الأصحاء الاقوياء دعوته ، ويطلبون منه أن يذهب بهم الى سوق المدينة ، واحيائهـا الشعبية حيث يحاول الاهـالى هناك سلب اموال السائحين بلا خجل ..

وزرنا أيضا كاتدرائية الميناء ، وقد ادهشنا جدا مبلغ فخامة الكاتدرائية وعظمة مبانيها وزخارفها ومبلغ الفقر الذى يعيش فيه الاهالى فى شوارع المدينة ..

***

وثمة حقيقة يجب أن اقررها هنا ، وهى ان الاختلال فى توزيع الثروة واتساع شقة الفوارق الاجتماعية يزداد حدة وشدة .. كلما بعدت عن القرية واقتربت من المدينة ، وقد ظهر ذلك واضحا عند انتقالى من قريتى «لوكو» الى «ساجرسا» العاصمة ، ومنها الى اوربا ، فقد بدأ الاختلال يشتد والفوارق تزداد ، فى المرحلتين الأخيرتين عنهما فى المرحلة الأولى ..

***

ثم جاءت آخر ليلة فى رحلتنا على ظهر السفينة قبل وصولنا الى ليفربول . وهى الليلة التى امضاها ركاب الباخرة فى الرقص

.. الا خمسة من الشبان الافريقيين ضمتهم احدى «الكبائن» ولم يشتركوا مع بقية الركاب فى رقصهم ..

كان حديثنا يدور حول «بريطانيا» تلك الارض التى ستطؤها اقدامنا لأول مرة ، والتى كما اثارت المزيد من اعجابنا ، فقد اثارت المزيد من اشمئزازنا واستيائنا فى بريطانيا .

***

وتناول حديثنا الكلام عن المستقبل القريب ؟ وأى الجامعات سنلتحق بها ، وما هى الطريقة التى سنسلكها لنكتسب المزيد من الاموال التى سنحتاج اليها فى عطلاتنا السنوية .

وسرعان ما انتقل الحديث الى المستقبل البعيد .. وتساءل « اديمولا » القصير النحيل الذى يزين خـــده وشم جميل يرمز الى قبيلته : هل فى نية احـدكم ان يشتغل بالسياسة عند عودته الى الوطن ؟ ..

فكان جوابى عليه أن ذلك متروك لحينه ..
وقال احد الزملاء انه لن يبدأ التفكير فى الاشتغال بالسياسة الا بعد ان ينتهى من تعليمه ..

ويبدو ان زميلنا « اديمولا » لم يعجبه هذا الرد فقال :
ــ ولـكن عليـكم ان تذكروا أن بعض زعمـــائنا يتولون الآن عملية تخريب البلاد وتقويضها وعليكم انتنظروا الى الطريق الذى يسيرون فيـــه لتمزيق البلاد .. انهم يرتـكبون جريمة صارخة يستحقون معها جميعا الحكم عليهم بالسجن ..

ويجب ان نلاحظ بان « اديمولا » كان قد اعد نفسه لدراسة القانون وانه كان مغرما بتوقيع العقوبات على كل من يختلف معه فى الراى .

اما « اوكولى » الذى كان يدرس الهندسة فقد اعلن انه يوافق « اديمولا » على رايه ثم زاد على ذلك بقوله : « واعتقـد ايضـا أنه يجب علينـا نحن الشـباب أن نبدأ على الاقل فى دراســة

الموقف السياسى فى بلادنا الآن .. ولتكن دراستنا له بعقلية الطالب وبأفكار جديدة دون أن نتقيد او نلتزم براى حزب من الأحزاب ، وفى اعتقادى ايضا انه اذا تجرد الطلبة الافريقيون من نزعاتهم القبلية ، وبحثوا شئون بلادهم بعقلية مجردة صافية .. اذن لتهيأ لنا أن نتولى حكم انفسنا بانفسنا فى خلال عشرسنوات».

أما « ابياه » الوسيم العريض المنكبين فقد اعلن رايه : فى ابتسامة عريضة ، تختلف عن لهجة حديثه ، وتخفى وراءها عزيمة من حديد فقال :

ـ عليكم بالأعمال لاقناع الرجل الأبيض باننا قادرون على توجيه الضربات اليه وعلى هزيمته ايا كان الطريق الذى يسلكه معنا .. ان الرجل الابيض لا يهتم ولا هو ينصت الى الكلمات الرنانة .. ولنبدأ عملنا بعشرة آلاف شخص مثلايتظاهرون امام مبنى الحكومة ، وليعقب ذلك زج عشرات من زعمائنا فى السجون .. هذا هو ما نحتاج اليه .. العمل .. والعمل وحده .. وهذا هو ما تحتاج اليه افريقيا كلها .

وتدخل صامويل فى المناقشة فقال :

ـ اننا فى «سونجهاى» مثلا نسير الهوينا لأننا ابتلينا هناك بوباء الجيل القديم الذى يتولى تصريف الأمور هناك .. ولست أرى انه من الممكن حمل شعب «ساجرسا» العاصمة ـ بما فى ذلك شبابها ـ على الثورة .. ما دام داء الولاء للقديم يتحكم فى عقول الناس هناك ..

وركز « ابياه » اهتمامه على كلمة « القديم » فقال :

ـ ان المستعمر البريطانى يبهجه ويسعده عندما يستمع الينا ويرانا نمجد القديم لا لشىء الا لانه قديم .. لماذا لا نتخلى عن هذا ؟ لماذا لا نتطور ؟ ان كلمة «القديم» هذه تؤلمنى ويؤذينى سماعها ..

أما «منسه» زميلنا الخامس ، فقد ظهر فى تلك الليلة فى بذلته الجديدة البيضاء مما أثار ضحكاتنا الى درجة ان وجه الينا « صامويل » الرجاء بأن نكف عن الضجيج ، فقد كان الوقت فى

منتصف الليل .. وخشي « صامويل » أن يأخذ علينا هؤلاء البيض أننا نميل الى الضجيج فى حديثنا ..

وبعد أن هدأت عاصفة الضحك بدأ «منسه» حديثه فقال :

ـ عليكم الا تنسوا السلحفاة والارنب البرى ، وأنتم تتحدثون فى السياسة ، ان بعض المستعمرات الافريقية تبدو وكأنها تعيش على حافة الخطر ، مثلها فى ذلك مثل سائق اللورى الذى يندفع بسيارته بسرعة ٦٠ ميلا فى الساعة فىطريق وعر ، فاذا انفجر اطار سيارته ، فهو اذن سيواجه حالة أشد خطورة من حالة زميله الذى يسير حذرا وبسرعة ٣٠ ميلا فى الساعة ، واذن فعلينا الا نهاجم التكتيك البطىء الذى تسير عليه بعض المستعمرات فىكفاحها نحو الحرية والاستقلال الى ان نرى بأنفسنا اى المستعمرات تمكنت من تحقيق استقلال مستقر دائم .

ثم مضى فقال :

ـ انتم تعلمون ايمانى العميق .. وهو ان افريقيا ستنال استقلالها ، ان عاجلا أو آجلا .. وان ذلك سيحدث حتما .

ثم اسمعوا .. من قال ان الرجل الابيض هو الجنس الأرقى والاسمى ؟.. الا تدل مظاهر النشوء والارتقاء على كذب دعواه ؟ ان تكويننا الجسمانى وشفاهنا الغليظة وشعرنا المجعد يدل على ذلك ويؤيده ويبرهنه ..

واكثر من هذا ، فاذا كان الهدف من المدنيــــة هو تحقيق التنسيق الاجتماعى . فانى اتساءل من هو الرجل المتمدين حقا، الافريقى او الاوربى ؟

انظروا الى حوادث القتل والانتحار والجنون والطلاق .. ثم احكموا بعد ذلك أينا اكثر تمدينا

ثم عندكم ايضا التفرقة العنصرية .. ثم ماذا يحدث فى هايد بارك .. ان ما يحدث هنـــاك ، يجعلنى أؤكد ما كنت اظنــه من قبل الشك، وهو اننا ـ يا سكان الغابات ـ نملك المزيد من الأعصاب والشرف اكثر مما نملك من عقول ..



وخرجنا من تلك الليلة يملؤنا الاعتقاد بأن مفتاح السياسة هو مفتاح جميع الابواب ، وقررنا ان نظل على اتصال فيما بيننا وان نوجه عنايتنا فى الوقت الحاضر على الأقل الى الدراسة ».

— ٥ —

طالعتنا « ليفربول » فى اليوم التالى ، باردة قاتمة تغطيها السحب والغيوم ، وبدت لنا الأرض الموعودة ، ارضا غير موعودة، من خلال نظرتنا اليها ونحن على ظهر السفينة .

* * *

ونزلنا من السفينة ، ووقف كل منا فى انتظار القطار الذى سيقله الى جامعته

صحيح ان حركة المرور فى المدينة ومبانيها ومحلاتها العامة وهذا العدد الهائل من السكان البيض قد أثار فينا الدهشة ». ولكن الذى ادهشنا حقا . هو منظر ذلك الرجل الأبيض ، فى ثيابه المهلهلة الملطخة بالأوساخ ، وهو يقوم بتنظيف مزاريب وبالوعات الشوارع .. ويجر أمامه عربة صغيرة يجمع فيها الادران والاوساخ

ولو سألنا سائل قبل الآن عمن يقوم بتنظيف المزاريب فى بريطانيا ، لاستبعدنا أن يقوم بهذا العمل احد من الرجال البيض ، ولو قام به أحد منهم فمعنى ذلك أن بعض المزاريب قد حظيت بشرف كبير !

والذى نعلمه انه حتى مثل هذه الأعمال التافهة ، قلما يسمح للعاطلين من الافريقيين القيام بها .

* * *

قال زميلنا « أبياه » على الفور : الحمد لله الذى جاء بنا الى هذه البلاد لنرى ما نراه الآن . لقد كنت اعتقد على الدوام ان فى هذه البلاد ما يستحق الانسان ان يأتى من اجله

* * *

ان هـذه التعليقات التى بدرت منـا ونحن نتطلع الى ذلك المنظر ، لا تعنى ان الرجل الأبيض قد فقد ما كنا نكنه له من احترام

ولكن الذى أضعناه حقا ، هى تلك الخديعة الـكبرى عن دور الرجل الابيض فى افريقيا ، ودعواه انه نصف اله ، ويجب ان تظل يداه نظيفتين ابدا ، لا من المال ، ولكن من الاعمال اليدوية الخشنة، والا يسمح له بأن يحمل من الاثقال ما يزيد عن حقيبة يد ولا أن يستعمل ما يزيد فى وزنه عن قلم حبر!

وقبل أن نكشف عن هذه الخديعة ، وتبدو لنـا الحقيقة على وجهها الصحيح . كان دور الرجل الابيض فى الارساليات . أو فى الوظائف التنفيذية العليا فى بلادنا . دور الرجل الذى يجلس أمام المكتب على الدوام ، رئيسا أو مديرا ولا يسمح لنفسـه مرة أن يقف امام المكتب ، مرءوسا صغيرا !

وكنا نراه فى بلادنا ، يصدر الأوامر دائمـا ولا يتلقى امرا من احد ، وكان فى استطاعته أن يحصل على أية وظيفة : تعجبـه وترضيه!

* * *

على ان منظر الرجل الابيض وهو يقـوم بتنظيف مزاريب الشوارع فى ليفربول كان من التجارب النافعة لنا والتى افدنا منها الكثير . فقد اصبح من الممكن الآن ان نحب الرجـل الابيض ، لأن الحب لا يولد هكذا جـزافا ، بل هو وليـد الاتصال والمشـاركة الانسانية والتجارب المشتركة ووحدة المصير .

* * *

واستأنفنا مسـيرنا خلف منظف المزاريب الذى تطلع الينـا محييا وهو ينحنى على فرشاته ، ولم ننس أن نرد عليه التحية .

واختفت ، وسط هـذه التحيات الصامتة ، ذكرى سـلوك سـقاة السفينة نحونا ، ذلك السـلوك الذى يشعرك كأن الآلهـة كلها ، قد انزلت من القوانين والشرائع، ما اوحت به الى السقاة بان

الرجل الابيض هو الذى يجب أن يتولى الحكم . وأن الرجل الأسود هو الذى يجب أن يخضع لكل حكم . وانهم سقاة واننا لا نعدو الا ان تكون مجرد ركاب فى السفينة سمح لنا بأن نكون على ظهرها وفى الدرجة الأولى بمقتضى ترخيص خاص!

* * *

أما صديقنا منظف المزاريب ، فقد كان أبعد من أن يضمر فى نفسه مثل هذه المشاعر ، وهى المشاعر التى كان لديه الوقت الكافى للتعبير عنها ، ولكنه بدلا من ذلك ، وجه الينا تحية ليفربول بقدومنا اليها !

* * *

على انه سرعان ما تكشف لنا ، انا وزملائى من آلاف الطلبة الافريقيين الذين يتلقون العلم فى بريطانيا ، ان الانجليزى فى بلاده يختلف عنه فيما وراء البحار

ويبدو ان الانجليزى لا يختلف عن غيره فى هذه الظاهرة وانها من الصفات التى يشترك فيها معظم الناس . اذ يحاول الانجليزى فيما وراء البحار أن يبرهن على انه متفوق على الرجل الأسود هناك ، كما أن الرجل الأسود بدوره يسعى وهو فى الخارج ؟ ليبرهن على انه لا يقل شأنا عن الرجل الابيض

ويبدو ان اثبات هذا كله يستلزم من الجانبين انتحال بعض الادوار الزائفة

* * *

فى اعتقادى أن الحل الوحيد لمشكلة الطلبة الافريقيين الذين يتلقون علومهم فى بريطانيا ، هو أن يسمح لهم بالعيش داخل البيوت وسط العائلات الانجليزية ، وليس من اللازم أن تكون هذه العائلات من العائلات الثرية التى تزيد ثروتها عن ثروة منظف المزاريب بل يكفى أن تكون من العائلات التى تحررت من الأفكار الزائفة بشأن الوضع الملائم لكل من الرجل الابيض والرجل الأسود ، لأنه عندما

يشترك الجنسان معا ، فى الحياة المنزلية ، بمعناها الكامل ، فمعنى ذلك زوال الاقنعة التى تخفى وراءها حقــائق الطباع ، وتتهاوى « الواجهــات » التى تحمل من الأسماء غير معانيهــا ، وتتوقف الادعاءات الكاذبة ويبدو كل على حقيقته ، ومن النادر جدا ، الا يجذب الرجل الكامل الانظار ، والا يأسر القلوب ..

* * *

وقد خرجت من تجــاربى فى بريطانيا ، وأنا اعتقــد ان البيت الانجليزى يمكن ان يؤدى نحــو الطلبــة الافريقيين من الخدمات ما لا يمكن أن تؤديه الأموال التى تنفقها وزارة المستعمرات والتى تنفق فى حفلات الرقص والترفيه وما تقوم به المؤتمرات المختلفة

* * *

ويسرع بى القطار الى « نيو كاسل » فى صباح ممطر من شهر سبتمبر . وتتجه أفــكارى نحو اشياء اكثر تفاهة من مشــكلة الوصول الى حل لمشكلة التمييز العنصرى فى بريطانيا

شعرت بالوحدة ، وتفرق أصحابى فى اتجاهات مختلفة . كل الى جامعتــه وكليته . وفارقنى « صامويل » فى طريقــه الى « برمنجهام »

وفى القطار الذى كان يندفع بى نحو « نيوكاسل » شعرت كأن أحدا من الركاب لم يشعر بوجودى ولم تقع عينه علي . ويبدو لى أن تلك هى طريقة الترحيب التقليدية عند الانجليز، عندما يجتمعون بأجنبى فى مكان واحد!

واتجه تفكيرى الى امتعتى ، هل هى فى أمان ، وما هو مصير حقائبى وزجاجاتى ، ثم جعلت افكر فى المنزل المؤقت الذى سأقيم فيــه الى أن أنتقل منه الى مسكنى الدائم .. وهل سأجد هناك أخوانى من الطلبة الافريقيين ؟.. وما هى أنواع الاطعمــة التى ستقدم لى .. اترانى سأقبل عليها او ستعافها نفسى ويمجهــا ذوقى ؟! ثم هل يا ترى سأتمكن من مقاومة جو هذه البلاد ؟

* * *

واشتد شعوري بالوحدة وانا في مقصورة القطار ، وانها لتجربة مريرة أن يتعرض الانسان لهذه الوحدة القاتلة وسط جماعة من الناس لا يتحدث معهم ولا يوجهون اليه الحديث

* * *

وينتقل بى القطار من محطة الى محطة اخرى ، ويصعد ركاب وينزل آخرون ، وتتغير وجوه الناس في مقصورتي واظل اشعر بانني لا ازال وحيداً ، في أول تجربة لي في تلك البلاد

* * *

وتذكرت ، وانا في القطار ، تلك الوحدة القاتلة التي احتوتني في الليلة الثانية لوصولي « ساجرسا » وسالت بعض قطرات الدموع من عيني ، غير أن مكاني لم يدم طويلا . فقد قررت الا أسمح للأحزان والذكريات أن تتغلب علي . وتذكرت أن أمامي من مشاكل المستقبل ، ما يستحق ان استعد له واوجه اليه اهتمامي

* * *

ويساورني احساس بأنني في حاجة الى مصدر مجهول استمد منه الشجاعة والأمل ، ويستبد بي هذا الاحساس . ولم يبق على وصولنا الى محطة « نيو كاسل » الرئيسية سوى نصف ساعة . ثم اتطلع من نافذة القطار ، وتقع عيني على كاتدرائية « دورهام » فتبهرني فخامتها وتبدو لي كأنها درامة صامتة تحكي ايمان البشر ، وزايلني مؤقتا شعور الوحدة القاتلة .

* * *

كانت اهدافي الرئيسية ، حتى ذلك الحين ، تقوم على اساس توفير الخبز والزبد، بالتحكم في اللغة الانجليزية واخضاعها ،واجادة تلك الثقافة التي كانت لها اهميتها الاجتماعية والتجارية في بلادي. على أن كاتدرائية دورهام جعلتني أدرك أن اعمالي يجب أن توجهها اعتبارات اخرى غير الاعتبارات المادية الخالصة

وقررت طوال اقامتى فى بريطانيا ، أن أطوف بها ، كلما سنحت لى الفرص ، حيث استمتع بالجمال الذى أجد فيه المتعة الدائمة

* * *

واستقر بى المقام أخيرا فى كلية كنجز ، احدى كليات جامعة دورهام ، وهى الجامعة التى افخر بأننى واحد من خريجيها

وقد زاد من اغتباطى ان مبنى الجامعة الرئيسى يقع على بعد مئات الياردات من مكتبتها العامة ، ويصعب علي ان أصف مقدار بهجتى وانا أتطلع الى تلك الصفوف المتراصة من الكتب

والحق ان هذه الفرصة التى اتاحت لى ان اطالع الكثير من الكتب . لم تتح لواحد من عشرة آلاف من سكان بلادى . وقد شعرت وقتذاك أنه من الممكن مجالدة مشاكل الطعام والجو والوحدة ما دامت تلك الفرصة أصبحت ملك يدى وطوع أمرى

***

والحق أن شعورى بالوحدة القاسية، الذى لازمنى فى الساعات الأولى وانا فى قطار ليفربول قد زايلنى تماما ، ولم يكن ذلك نتيجة لوجود الكثير من الافريقيين فى جامعة كنجز ، ولكن لأننى وجدت فى هذه البلاد الشجاعة مزيدا من الترحاب ، ووجدت لدى معظم الطلبة استعدادا طيبا لابداء النصيحة والصداقة .مما دعانى الى أن أكتب لوالدى بأنه ليس هناك ما يدعو الى القلق وان الأمور تسير سيرا حسنا

* * *

وقد ظهر لى أن الطلبة البريطانيين على شيء من الغرابة والشذوذ فى عاداتهم ، ولا شك انهم لاحظوا مثل هذه الغرابة فى بعض عاداتنا .

ومن الامثلة الواضحة على غرابة طباعهم رفضهم التسليم بضرورة الإستحمام يوميا حتى فى شهور الصيف الحارة !!

وكان يترامى الى سمعى فى كل مكان ، كيف يشير هؤلاء الطلبة الى « ليلة الاستحمام » كحادث خاص ، يحدث بصفة خاصة ، وليس كشىء عادى يتكرر عادة كل اسبوع

ويذكرنى هذا بذلك المجرى المائى الصغير فى قريتى « لوكو » ذلك المجرى المستديم الذى يتقلص الى مجرد قطرات من الماء فى فصل الجفاف ، فاذا جاء فصل الأمطار . ارتفعت مياهه وارغد وازبد وأصبح شلالا يكتسح أمامه الرجال

وسواء كنا فى فصل الامطار او فى فصل الجفاف ، فهو أبدا موضع ارتياد العدد الكبير من الناس هناك

وليس هناك أمتع ولا ابهج للنفس من أن يغسل الانسان ملابسه وهو يستحم

وانى لأذكر مياه ذلك المجرى . فقد كانت باردة وهادئة حينا ، وكانت الصخور قاسية ناعمة وصالحة لضرب الملابس عليها لتنظيفها

وثمة قانون غير مكتوب فى لوكو كان يحكم تلك العملية العجيبة ، وهو انه لا يسمح ابدا باختلاط الجنسين فى ذلك الحمام

* * *

يقول التاريخ ان الفاتحين يتعلمون العادات الحميدة على أيدى المغلوبين . وهو قول حق ، فقد اخذ الانجليز فى بلادنا يداومون هناك على الاستحمام

* * *

وعلى العكس من هذه النظرة البريطانية نحو نظافة الابدان فى بلادهم ، فان مظاهر النظافة التى لا حدود لها ، تبدو فى منازلهم وحدائقهم ومتنزهاتهم العامة . وفى اعتقادى انه لا يضيرنا ابدا أن نتعلم منهم الكثير فى هذا المجال

* * *

ولا يمكن أن أغفل هنا ذكر « الفردية » التى يتميز بها الانجليزى وفقدان الصلات والالتزامات العائلية . ومقارنة ذلك بالعادات السائدة فى بلادنا

فقد نشأنا على أن تكون « العائلة » موضع الفخر والتمجيد ، وان ندين لها بالولاء الكامل الصادق ، وان نؤمن بأن هذا الفخر والولاء يجب أن يمتد الى أبعد الاقارب .

ومعنى كلمة « العائلة » عند الافريقى أسمى وأعظم من معناها عند الانجليزى ، ولقد كنا نبتسم وهم يتحدثون فى بريطانيا عن الحياة العائلية عندهم . وهى الحياة التى لم نشهد من معانيها أو معالمها ، الا القليل التافه

وأين تلك الحياة من حياتنا العائلية فى « لوكو » أو «ساجرسا» حيث لا يستطيع كائن من كان أن يتخذ قرارا هاما دون مناقشة ما له وما عليه مع أفراد العائلة

ولن يتخلف واحد من أفراد العائلة ، فى المشاركة فى مختلف الحفلات ، أو تشييع الجنازات ، فيما عدا الريفى أو الذى على سفر بعيد .

فاذا أصاب احد أفراد العائلة محنة .. فان أفراد العائلة أجمعين يسرعون الى مواساته وتقديم العون اليه . فاذا دقت طبول الفرح ، فلا ينقطع ذلك السيل العارم من المهنئين والمباركين . وهو لا ينقطع ايضا ، اذا هبطت على أحدنا ثروة ، من زراعة أو تجارة

* * *

وكما ان الاخلاص دأبنا فى الولاء للعائلة ، فنحن أيضا لا نلتزم الا الصراحة فى خصومتنا ، فاذا كرهنا أحدا ، وجهنا اليه والى عائلته اللعنة ، بلا مواربة ولا حقد دفين

* * *

وهكذا يقوم نظام العائلة عندنا على التسامح وعلى أشد نظم الامن الاجتماعى سلامة

وخلال هذا كله ، اصبح من الممكن تجنب تلك الفوارق الشديدة بين الطبقات ، بين الثراء الفاحش والفقر الشديد . تلك الفوارق التى نشأت منها تلك المظالم فى النظام الاجتماعى الاوربى ، ونشأت عنها الثورات وأريقت فيها الدماء

ومن النوادر التى كنا نتناقلها فيما بيننا ، ان الانجليزى يعامل كلبه كما لو كان الكلب ابن أخيه . ويعامل ابن أخيه كما لو كان ابن رجل آخر غريب !

* * *

ويمر العام الاول من الدراسة سريعا ، وأنتهز الفرصة وأتوجه الى دورهام لتمتلىء نفسى من جمالها . وكان يحلو لى على الدوام أن اهيىء الفرصة لخيالى بأن يسبح فى ذلك الجمـال الطبيعى ، ولأرسم فى عقلى صورة تلك الحياة السحيقة فى تلك القرون البعيدة

* * *

ولقد دابت على ان اقوم برحلاتى وحدى ، صحيح اننى كنت استمتع بصداقة الكثيرين فى نيوكاسل ، ولكن حرصى على أن اقوم برحلاتى وحدى . هو لأننى كنت انظر اليها على انها ليست مجرد رحلات ، ولكنها دراسـات كنت أشعر بأننى أستطيع اسـتيعابها ما دمت وحدى

* * *

وبدات اطول رحلة لى بتلك الزيارة لمنطقة البحيرة . وهى الزيارة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ حياتى . وقد اخترت منطقة البحيرة لما أثارته فى نفسى من الاعجاب ، وهو الاعجاب الذى طفحت به كتب المؤلفين الذين تغنوا بجمالها

وقررت أن تكون الرحلة مشيا على الاقدام يتخللها ركوب اية سيارة أقابلها فى الطريق ، دون مقابل ، اذا استبد بى التعب



وقد حدث فى احدى مراحل الرحلة ، ان اشرت الى سائق احدى اللوريات بأن يقف لاقطع معه بقية المرحلة ، فتوقف الرجل ، وأجلسنى بجانبه . وقد بدا لى وانا اتفحص وجهه الذى كانت تبدو عليه ملامح الطيبة والسذاجة ، انه صورة من صور الناس التى كان « تشارلز ديكنز » يتخيلها وهو يكتب قصته « مستر بيكويك » .

ويبدو ان السائق قد اذهله رؤية احد الافريقيين فى ذلك المكان ، فجعل بدوره يتفحصنى ثم ابتدرنى قائلا :

ـ من كان يظن . . ان اراك هنا فى هذا المكان ، وفى هذا الصباح؟ ثم الى اين وجهتك أيها الشاب ؟

ـ الى كيزويك . . لزيارة منطقة البحيرة

ـ لا شك انك قادم من مكان بعيد ثم حدثنى من أى البلاد أنت ؟

ـ من ساجرسا

ـ وأين تقع ساجرسا هذه ؟

ـ انها عاصمة « سونجهاى »

ـ سونجهاى البرتغالية

ـ لا ! سونجهاى البريطانية

ـ حسن . . لا شك انها اصبحت ملكا لبريطانيا الآن . . ولكن لماذا لا نحاط علما بهذه التغييرات

ـ لان الذين من واجبهم احاطة الناس علما بهذه التغييرات ، يجهلون هم انفسهم هذه التغييرات

وتفحصنى بنظرة قاسية ، ثم مضيت فى حديثى قائلا :

ـ اننى طالب فى جامعة كنجز ، والذى أعلمه ان الكثير من زملائى الطلبة يعرفون القليل عن امبراطوريتهم !

وعادت الى صديقى الجديد روحه المرحة ثم قال :

ـ تقول انك فى طريقك الى منطقة البحيرة ؟

حسنا . . انك ستستمتع برحلة طيبة هناك . .

ثم سألنى : هل تسافرون فى بلادكم هكذا مشيا على الاقدام ؟

ـ لا ! بل لدينا الكثير من اللوريات . وهى اللوريات التى نطلق عليها اسم « لوريات الأمهات » لأنها فى العادة تمتلىء بالنساء وهن فى طريقهن الى سوق القرية . . ثم ان هذه اللوريات عادة ما تكتب عليها بعض العبارات المسلية

قال صديقى :

ـ دعنا نسمع البعض منها . . .

وجعلت أروى له البعض منهـا مثل « لا حلوى بدون عـرق » و « ايماننا بالله » و « الله هو الملجأ وهو الحامى »

وقال صديقى الذى اطربته هذه العبارات :

ـ يبدو ان حوادث المرور عندكم كثيرة ؟

ـ نعم . ولو ان ذلك ليس بالكثير بالنسبة الى أن حركة المرور فى بلادنا ليست شديدة . وقد دأب السائقون فى بلادنا على النجاة بانفسهم اذا وقع لهم حادث . . ومعظمهم يترك سيارته ويهرب قبل أن يستجوب

ـ ولكن كيف يحدث هذا ، واين رجال البوليس ؟

ـ أن عددهم فى بلادنا قليل

* * *

ونلمح فى طريقنا مقهى صغير تقف امامه مجموعة من اللوريات ، ويدعونى صديقى الى تناول قدح من الشاى و « لقمة » من العيش هناك ، وعندما نقترب من المقهى يقول صديقى :

ـ ان صديقى تشارلى فى المقهى .. وهذه سيارته الحمراء ذات العجلات الثمانية تقف هناك ..

ان تشارلى من الطيور النـادرة الذى يعرف الكثير ، نتيجـة لتنقله هنا وهناك ، ولكنه ليس متعلما اذا قورن بك وبزملائك من طلبة الجامعة . ولكنه مع ذلك صـاحب معلومات عامة وفـيرة .. التقطها من هنا وهناك من الرحلات التى قام بها .. وهو على قدرة لأن يحسن الحديث مع الناس .

وتوقفت بنا السيارة ، وانتابنى فى بادىء الأمر شعور من الحلن حول قبولى دعوته الى المقهى على اننى كنت ظمآنا ولم يكن فى مقدورى أن اقاوم فكرة تناول قدح الشاى و « لقمة » من العيش

ودخلنا المقهى ، الذى رصت فيه بعض الموائد العارية ، وعليها الاكواب والاطباق والاقداح . وكان المقهى يعج بعشرات النـاس ، انتحى كل منهم مائدة خاصة . ويبدو ان معظم رواد المقهى قـد وجهوا تحياتهم الى صديقى السائق عند دخوله

واختار لى مائدة خالية ، ثم دعانى الى الجـلوس ، ويبدو أن الأنظار كلها كانت تتجه الي فى دهشة

والتفت صديقى « جو » وهذا اسمه ، الى الجالسين قائلا :

ـ اقدم اليكم صديقى .. كان فى طريقه الى منطقة البحيرة ؟ مشيا على الاقدام ..

ثم وجه الي الحديث قائلا :

ـ ما هو اسمك أيها الصبى ؟. ثم لاتكن هكذا خائفا منهم .. انهم لن يقضموك بين اسنانهم .. انهم جميعا ظرفاء

ـ اسمى كامارا ..

كان هذا جوابى فى وسط شـعور من عدم الراحة نتيجـة للاهتمام الذى اظهره الجميع نحوى ، والواقع لقد كانت هذه اول

مرة اجد نفسي بين هذا الجمع من الانجليز ، وقد تكون هذه هي المرة الاولى التي يشاهد فيها معظمهم واحدا من الافريقيين !

* * *

ثم تمضي برهة ثقيلة حرجة ، يتجه بعدها نحوي رجل ضخم عريض المنكبين برونزي الوجه ويبدو انه تعرض الى لفحات من مختلف الأجواء ، ثم يشد على يدي في مودة تزيد عن تلك المودة التي يتصافح فيها الصديقان بعد غياب طويل ثم وجه الي الحديث قائلا :

ـ اهلا وسهلا بك بيننا هنا .. ان اختيارك منطقة البحيرة كان اختيارا موفقا ، فليس هناك اجمل منها . كما ان اختيارك القيام برحلتك مشيا على الاقدام ، كان أكثر توفيقا ، ومن حسن الحظ أننا ننعم بصحبتك وانك تنعم بتلك الصحبة

ورد عليه صديقي « جو » قائلا :

ـ أيها الصديق العزيز تشارلي . لا تزال كعهدي بك تحسن الحديث

واذن فهذا هو تشارلي الرحالة الذي حدثني عنه جو والذي بدأت انظر اليه باهتمام جديد .

* * *

والحق ، ففي خلال دقائق معدودة ، احسست بانني لم اعد غريبا بين هؤلاء الناس ، ومضيت استمتع الى حكاياتهم وقصصهم . فقد كانوا أصحاب حصيلة عجيبة من مختلف الحكايات . منها ما يدعو الى الضحك ومنها القصص الحزينة ، والفكاهات المليئة بالبذاءة

والحق ايضا ان هذا ما كنت اسعى اليه ، وهو الاستماع الى مختلف القصص ومختلف اللهجات والى هذه اللغة التي يتحدث بها هؤلاء الذين ينقصهم العلم والذين لا تنقصهم التجارب التي مارسوها باختلاطهم مع مختلف الطبقات

وقص علي « تشارلي » قصة سفره في احدى السفن الحربية الى « ساجرسا » خلال الحرب العالمية الاخيرة

وقدم لنا الطعام ، قدمته لنا امرأة ضخمة الجثة ، وادركت وقتها انني ظمآن وجائع ، فأقبلت على الطعام بشهية عجيبة لم أشعر بمثلها من قبل نحو هذه الاصناف من الاطعمة البريطانية . وحاولت ان أقدم لصديقي قدحا من الشاي . معرضا ما كنت احمله معي من النقودلاشد الاخطار . ولكن جووتشارلي رفضاذلك، بوصفي ضيفهما ، ولانني اجلس في نفس المقهى الذي يعتبره كل منهما « مقهاه » ونصحاني بأن احتفظ بأموالي فقد اجد عند منطقة البحيرة صبيا يشبه الصبيان الافريقيين الذي يلتفون حول السفن الحربية ، عند وصولها الى الموانيء الافريقية ، وتلقى اليهم بالنقود في المياه ، فسرعان ما يقفزون في الماء ، ويلتقطون النقود من قاع البحر ..



وجعلت اقص عليهم احدى القصص ، وهي قصة امرأة نصف « متمدينة » في ساجرسا ، رزقت بطفل بطريقة غير شرعية ، وارادت التخلص منه ، فتوجهت الى السوق ، ووقع نظرها على سيدة أخرى تبدو عليها علائم الامومة ، وطلبت منها أن تستبقي الطفل معها لحظات ، الى أن تنتهي من شراء بعض الثياب .. واختفت الام بثيابها ، وتركت طفلها مع السيدة الحائرة ..

وقد مهدت هذه القصة ، بذكر حقائق الحياة في افريقيا ،وكيف أن الوالدين هناك لايفرطان ابدا في اطفالهما ، لأن الاطفال تعتبر دخلا اقتصاديا هاما في الاسرة .

ويبدو أن أصدقائي وجدا في قصتي نوعا من العبث ، فلم يصدقها أحد على الرغم مما قدمته من احتجاجات

* * *

وقص علينا تشارلي قصة أخرى ، قصة اللصين اللذين تمكنا

عن سرقة احدى العربات التى كانت تجرها سيارته ، اذ لم تكن فى العربة سوى جثة كانت فى طريقها الى المشرحة !

***

وأبديت لصديقى مخاوفى من ان استمر فى رحلتى ليلا ، فعرض على تشارلى أن أقضى ليلتى عند صديق لهما ، على ان تحملنى احدى السيارات فى الصباح الى كيزويك

* * *

ووجدت مزيدا من الصعوبة فى توجيه الشكر الى جو وتشارلى على حسن ضيافتهما لى

والحق فان الكثير من حياتى القادمة ، يعتمد على قدرتى من التفاهم وانشاء العلاقات مع الرجال الذين لم تتح لهم فرصة المزيد من العلم فى بلادى ، وقد سرنى جدا ، خلال وجودى فى ذلك المقهى أن ارى نفسى قادرا على الاندماج سريعا فى صحبة هؤلاء السائقين وأن تكون لى نفس تجاربهم وأن أكون قادرا على تبادل الحكايات معهم ..

* * *

وفى الصباح التالى ، حملتنى احدى السيارات فى الطريق الى كيزويك ، حيث فشلت محاولتى فى تسلق احدى الجبال لمشاهدة جانب البحيرة وقررت أن أسلك الطريق المستوى الذى يقودنى الى أحد شواطىء البحيرة الذى حاولت التماس الراحة عنده

* * *

هناك وعلى صخرة كبيرة تقع اسفل احدى الاشجار وقعت عينى على فتاة انجليزية ــ كما ظننت لأول مرة ــ ينسدل شعرها الطويل على كتفيها . وترتدى « بول اوفر » أحمر . وتتشح بوشاح ينسدل على كتفيها . وكان ظهرها نحوى فتوقفت ولم أدر ماذا أفعل ؟.

ثم ادارت وجهها نحوى ، وكان وجهها جميلا جذابا ، وفجأة وجدت نفسى مسلوب القوة الا من مجرد النظر اليها مأخوذا .

وليس في مقدوري أن أصف ذلك الوجه بالتفصيل ، هذا الوجه الذي ظلت صورته ، خلال شهور قليلة لا يبـارح مخيلتي طوال يومي ، ولا تتركني حتى في ساعات نومي

لقد تعرفت الى الكثيرات من زميلاتي الطالبات ، في الحفلات التي كانت تعدها الجامعة . ولكنني كنت اعتقد على الدوام ، وكنت أبدي ملاحظاتي هذه الى الآخرين ، وهو انه فيما عـدا ما ترتديه هؤلاء الطالبات من ملابس ، فليس ثمة ما تحتاج اليه بناتنا في الوطن، لمنافسة هذه الفتيات البريطانيات

وكثيرا ما كانت تصل الى اذني تلك الشكاوى المريرة من بناتنـا في الوطن وهي اننا نرى في نساء بريطانيا منافسا خطيرا لنسائنا الى درجة لا يتردد معها الرجل الافريقي في نقض وعوده الطويلة والضرب عرض الحائط بنصائح الوالدين . . ويسعى الى الزواج من بريطانية.

وانها لمأساة ان تمتلىء اسواق « ساجرسا » بالصبايا الحزينات وهن ينظرن الى رجال بلادهم تصاحبهم زوجاتهم البريطانيات في سوق المدينة .

* * *

ولست أعتقد أن ما كنت اعتقد فيه قد أصبح مجرد أفـكار عابرة .

* * *

وعندما وقعت عيني جريتا علي ، شعرت كأنني اصبحت تحت تأثير سحر غريب واخيرا حلت عقدة لساني وقلت لها :

ـ أرجو أن تغفري لي اقتحام وحدتك .

فكان جوابها :

ـ صباح الخير : انني لم أفاجئك . . ولكنك أنت الذي فاجأتني . . اذن فعلام هذه الحيرة وهذا الانزعاج من جانبك ؟

ضحكت في عصبية . ثم سرعان ما استعدت هدوئي وهو الهدوء الذي صاحبه شعور آخر من بهجة الكشف من جديد وكنت اعتقد

أن احساسي هذا جاء نتيجة عثوري على انسان آخر ابدى استعداده للتحدث معى فى حرية تامة . ولكن سرعان ما وجدت نفسى افحص ذلك الوجه الذى تقف صاحبتـــه أمامى . قطعة قطعة . وعينيهـــا اللتين أصبحت أسيرهما من أول نظرة

قلت لها مرة أخرى :

ـ انني آسف لسلوكي السابق . . وقد يبرره أن الانسان لا يمكن أن يحظى برؤية سيدة فاتنة ساحرة على الشاطىء كل يوم فى حياته

اغمضت عينيها قليلا ، ولم ترد على حديثى وشعرت وقتذاك أن اجتماعنا قد أوشك على نهايته وان قوس قزح اوشك ان يغيب وتغيب معه سعادتى فقلت لها :

ـ هل تسمحين لى بالانصراف ؟

وانتظرت جوابها فى لهفة . . وفى انفاس مكتومة وعادت تنظـر الي بعينيها قائلة :

ـ أين تعلمت الانجليزية ؟

فقلت لها ، وأنا اقترب منها لأجلس بجوارها على ذلك الصخر :

ـ تعلمتها فى سونجهاى ، التى تقع فى غرب أفريقيا ، وسونجهاى مستعمرة بريطانية والكثيرون هناك الذين يعيشون فى المدن الكبرى يتحدثون الانجليزية . .

قالت جريتا :

ـ انني من بريتوريا

قلت :

ـ اذن . . فنحن افريقيان . .

قالت :

ـ ولكن لاتنس أن هناك اختلاف بين غرب إفريقيا وجنوب افريقيا . . اختلاف لا يقتصر على اللون وحده

قلت ؟

ـ ولكنه ليس اختلافا أساسيا كما تعلمين ...

قالت :

ـ هناك الكثيرون فى جنوب افريقيا لايؤمنون بسياسة التفرقة العنصرية . انني واحـدة منهم . ويجب أن تعرف بأن الكثير قـد هرب من البـلاد لهذا السبب .. ثم لا تنس ايضا أن هناك أسباب تاريخية تكمن وراء تبرير سياسة التفرقة العنصرية

قلت :

ـ اخشى ان أقول بأن رئيس وزرائكم هو من اشد الناس الذين يتمتعون بالكراهية فى افريقيا .. واعتقد انه ليس هناك من يسعى الى الكشف عن هذه الاسباب التاريخية او الاهتمام بهـا وكل ما نعرفه هو ان رئيس وزرائكم يرغب فى عزل الافريقيين عنكم . لانه يعتقد بأنكم أرقى من الافريقيين وأسمى منهم . وانه من أجل ذلك حدثت بعض الوقائع المحزنة لبعض الهولنديين الذين زاروا غـرب أفريقيا ...

قالت :

ـ ان ما تقوله فظيع .. لأن الـكراهية الناشئة عن التفرقة العنصرية ، تدل على ضعف النفوس سواء من الذين يمارسونها ، أو من الذين يقعون تحت ضغطها

انني من البوير . واذا شاهدوك وانت تتحدث الي ، حتى ولو كانوا يجهلون مايدور بيننا من حديث فمعنى ذلك جلدى بالسياط. ولقد ادركت أخيرا مدى تحيزهم فى عدم تفهم وتقدير القدرةالعقلية والانجازات الثقافية التى قام بها شعبكم ولكننى أدركت هذا كـله نتيجة لاختلاطى بالطلبة الافريقيين هنا

ثم لا تعتقد بان حملات الـكراهية التى أعلنتها ستسـاعد على اقناع قومى بتغيير رأيهم

قلت :

ــ انني آسف . كنت لا اعي ما اقول ؟ وحاولت تهدئتها فقلت :

ــ اننا فى بلادنا من محبى السلام ، ومن دعاة التسامح

ثم قالت :

ــ انني لا اعتقد بان المدارس عندكم تتحمل مسئولية التقارب بيننا . .

ثم سألتني ايضا :

ــ هل انت طالب ؟

* * *

ومضينا نتحدث ، وكشفت لى عن بعض تاريخ حياتها ، وعلمت منها انها فقدت والديها وهى طفلة ، وانها جاءت بصحبة اخيها وصديقه ، وكلاهما يتلقيان علومهما فى لندن ، للاستمتاع بمناظر منطقة البحيرة ، وانهما ايضا توجها للاستمتاع برياضة التسلق التى لا تستمتع بها

* * *

ثم أدارت دفة الحديث قائلة :

ــ لماذا لا تقابل جان وفردريك يوما ما فى هذا الاسبوع ؟ أن جان وفردريك يؤمنان بسياسة التفـــــرقة العنصرية . ولم تتح لهما الفرصة قط لكى يتحدثا الى افريقى ، حديث الرجل الى الرجل ، ويبدو لى أن هذه فرصتى الكبرى لأحملها على تغيير رأيهما هذا .

ثم أليس فى مقدورك ، أن تجتمع بهما ساعة او ســاعتين ، تتحدثون فى خلوة وفى هدوء ، يخرجان بعدها وقد وجدا أن هناك بعض الناس من الملونين ، من هو على مزيد من العلم . . ؟! لمــاذا لا تبدأ هذه المحاولة ؟

فوعدتها بذلك ، وفى اعتقادى أن اجتماعى بهذين الرجلين هو مجرد فرصة مواتية لأراها مرة ثانية وان أعلم عنها المزيد

وحاولت أن تختفي مودعة ، ولكنني أستبقيتها قائلا :

ـ لحظة واحدة من فضلك . انه من السهل ان يتعرف الناس بعضهم الى بعض ، بشرط أن يتعرف كل منهم اسم صاحبه .. ان اسمي هو كامارا .. كاسيمي كامارا

فكان ردها :

ـ كم أنا آسفة ! أنا جريتا هالز .. وجان هو شقيقي .. وفردريك خطيبي ..

واختفت وهي تنطق تلك الكلمة

- ٦ -

لم يكن البار في فندق « رويال كيزويك » من الفنادق المحرم علينا دخولها كما تخيلت وشعرت عند دخولي البار انني في حاجة الى مزيد من الشجاعة في اللحظات الاولى قبل أن أقابل « جريتا » واتجهت الي الانظار قبل أن تقع عيني على « جريتا » في الجانب الآخر من الحجرة

ويبدو لي ، انه يجب على كل انسان يتمتع بحواسه الخمس ، أن يفكر مرتين ، قبل أن يقرر الوفاء بمثل ذلك الوعد . هذا الوعد الذي اقرر هنا ان غايتي منه لم تكن السعي الى تحويل شخص عن رأيه ، بل لمجرد رؤية « جريتا » مرة اخرى . وكنت اعرف ايضا انها مخطوبة لرجل أيا كان وزنه للامور وايا كانت قيمته في الحياة ، فهو ـ من ناحية اخرى ـ لا جدوى منه بالنسبة لقومي .

ولكن عندما يرى الانسان نفسه وقد صرعه الحب ، فانه سيبدأ فقدان التحكم في قدرته على التفكير ووزن الامور ، وستبدو أعماله وقراراته بعيدة عن المنطق والعقول ، وأكثر اندفاعا ، وأبعد عن الروية والحذر .

* * *

كنت وقتها ارتدى حلة تليق بتلك المناسبة ، وكانت جريتا وحدها ، وتبادر الى ذهنى ان شيئا ما قد حدث وتلاشت مظاهر الاهتمام التى احسست بها عند دخولى البار . عند ما اشارت جريتا الى غياب الرجلين قائلة :

ـ سينضم الينا جان بعد مدة .. اما فردويك فانه لن يحضر ؟ واخشى ان اقول ، بأن فردريك رفض الفكرة رفضا باتا

لم يزعجنى هذا ، فى قليل او كثير بل على النقيض من ذلك . اضللت نفسى وخدعتها ، فزعمت اننى كسبت معركتى الاولى مع فردريك .

قلت لها :

ـ لا تقلقى ولا تلقى بالا نحو هذا ... ان ذلك لن يعجل بفناء الدنيا ..

قالت جريتا :

ـ أنه من الاهمية بمكان عندى أن تتقابلا وان تسعى الى حمله على التخلى عن هذه المبادىء التى رسمها لنفسه .. لقد اتم دراسته وفى خلال اربعة اشهر سيعود الى بلاده ، فاذا لم تفعل شيئا ، فمعنى ذلك ضياع الفرصة الى الأبد .

ـ يبدو لى أن ما يقلق بالك ، هو ان يتم زواجك به قبل ان يتحول عن مبادئه .

ـ هذه هى الحقيقة .

وتطلعت الي بعينيها مرة أخرى ، ويبدو لى كأن هاتين العينين تتحدثان الى بقولها : اذا كنت تتوقع منى أكثر من هذا الاخلاص ، فانك تضيع وقتك عبثا !

* * *

وسألتها عن مدى هذا التعصب الذى يكاد يخنق فردريك فقالت : أنه تعصب عنيف ومضت تشرح اسبابه !

ـ لقد دأب والد فردريك على معـاملة الوطنيين الذين يعملون في مزرعته في قسوة وعنف وكان الوطنيون يمقتون والد فـردريك وعائلته مقتهم للسم ، وكانوا ـ تعبيرا عن كراهيتهم ـ يلقون بأعواد الكبريت المتقدة في صندوق الخطابات .

وفي مساء ما ، أشعل المزارعون النار في سيارة والد فردريك ! وكان الرجل المسكين في ذلك الوقت في غفوة ، وكان من آثار الانفجار أن أصيب الرجل بشلل ظل ملازما له طوال حياته .

اما فردريك فقد امسك بأول رجل قابله في طريقه . وكان الرجل بريئا ، واثبت التحقيق انه لم يشترك في حملة الغضب التي ذهب ضحيتها والد فردريك . ولكن الاخير ظل يضرب الرجـل البرىء حتى أودى بحياته في الشمس المحرقة . وخرج فردريك من المحاكمة بغرامة كبيرة

وتوفى والد فردريك بعد عام واحد من هذا الحادث ، ولا شك ان الجراح التى أصابته والصدمة التى تعرض لها قد عجلا بوفاته، وحتى هذه اللحظة لم يتمكن أحد من الكشف عن المسئولين عن هذا الحادث ..

* * *

هذا ما قالته « جريتا » في تبرير الغضب العنصرى الذى يكاد يخنق فردريك ، واختتمت روايتها بقولها :

ـ وعلى ذلك فهناك أسباب تاريخيـــة تسبب ذلك التعصب العنصرى الذميم الذى يؤمن به انسان ما

وتطلعت الي بعينيها مرة أخرى ، وبدا عليها القلق ، كأنها كانت تخشى أن يكون أثر كلماتها علي قاسيا للغاية . وابتسـمت بدورى في وجهها ، ثم انهمكت في تناول مشروبي . وفي لحظة خاطفة ، قلت لها ، وانا أضم يدها الى يدى فوق المائدة :

ـ دعيني أتوجه اليهما في حجرتهما الآن . ولنرى ماذا يحدث !

وسحبت يدها من يدى قائلة :

ـ هذا الذى تقوله هو نفس ما كنت أخشى أن أعرضه عليك ؟ وان كنت فى قرارة نفسى أرغب فى أن أعرضه .

* * *

وشعرت فى قرارة نفسى بانه يجب ان أكسب معركتى الثانية الآن ، أو يضيع كل شيء منى الى الابد وان هذه المعركة ستكون المعركة الفاصلة فى عينى جريتا

وايا كانت نوايا « جريتا » نحوى ، فان مظاهر الاهتمام التى بدت فى عينيها نحوى ، جعلت نبضات قلبى تعود مرة اخرى ، فى سباق مجنون سريع

وهاانذا الآن فى طريقى لمواجهة الرجل الذى بدأت اقنع نفسى بانه عدوى

قلت لها :

ـ هيا بنا ، وقامت من مقعدها ؟ وهى تشير الى الطريق ؟ واتجهنا الى الحجرة التى يقيم فيها فردريك ، وهناك لمحت انسانا طويلا على خلاف العادة ، قوى البنيان ، شاحب اللون ، ويبدو عليه الاضطراب ، ولمحت شخصا آخر ، كانت سحب الدخان تنعقد فوق رأسه وشاهدت ايضا صورة « جريتا »

قالت جريتا :

ـ لقد جئتكم بنبى الى حجرتكم .. ولست أدرى ان كانت جريتا بقولها هذا تريد أن يبدو الموضوع كله فى صورة دعابة او انها القت بكلامها هذا نتيجة لرباطة جاشها .

قال فردريك :

ـ اذا كان ماتفعلينه هو مجرد دعابة .. فهى دعابة بعيدة عن التسلية ، وفى رأيى أن تنسحبى انت وبقية الممثلين من المسرح فورا فكان رد جريتا انها لم تقصد الدعابة ، وسمعت رنين الاهتمام يبدو فى صوتها وهى تستمر فى حديثها قائلة :

ـ انني أريد أن تقابل السيد كامارا ، ولكنك ترفض .. ولست ادرى من سبب معقول لهذا الرفض . ان السيد كامارا قد عرض على فكرة الاجتماع بك ايضا ، وقد تحمست لفكرته ، ولم يدر فى خلدى ابدا انك ستأخذ الامور بهذا الشكل

قال فردريك :

ـ قلت لك بعد ظهر اليوم . انني لم اقطع ستة آلاف ميل من بريتوريا الى بريطانيا لأتناول مشروبا ، بلا كلفة ، مع الزنوج الذين وطأتهم بقدمى فى التراب فى بلادى ..

وتدخل الرجل الآخر قائلا :

ـ اسمع يا رجل .. تجنب هذا الكلام

واستأنف فردريك كلامه قائلا :

ـ ان على جريتا الا تنخدع بهذا الأسلوب الناعم الذى يحاول هذا النوع من الاشياء ـ كامارا والباقون ـ خداعنا به . فانما هى تسير فى الطريق الوعر . وغير هذا ، فقد استمعت اليها بعد ظهر اليوم وهى تتحدث عن هذا الزنجى وكأنه حبيب الفؤاد وانها لاتزال تتحدث عنه الآن بنفس لهجة حديثها بعد الظهر .. انني اتحدث بالصراحة ، لأنه ربما كانت الصراحة خير ما يساعد الجميع على أن يجد كل منا مكانه الصحيح .

* * *

ان لفظ الزنجى من الالفاظ التى تثير اشمئزاز واستنكار كل افريقى . ولن يستطيع كائن من كان ان يحول بيننا وبين الغضب اذا استخدمت هذه الكلمة ، سواء استخدمت على لسان الشبان الانجليز . او اذا نطق بها أطفالهم .

* * *

احسست باننى اصبحت فى ثورة .. واحسست بأنه يجب عمل شىء ما . وبسرعة وبدون ابطاء توجهت بحديثى الى فردريك

قائلا : « لقد ابديت المزيد من الاحترام نتيجة لوجود هذه السيدة بيننا . وبذلت هذا كله حتى لاأساعدك بقبضتى هذه ، فى وضعك فى المكان الذى تصلح له ، لقد أهنتنى اهانة بالغة وتعمدت ذلك دون أى استفزاز من جانبى . وحتى قبل أن يتعارف كل منا الى الآخر . وأنه ليسعدنى جدا أن أستأذن فى الانصراف من حضرة شخص سيىء التهذيب » ..

وشرعت فى الخروج . ثم عدت ثانيا . ولم أتمكن من مقاومة الاغراء الذى غمرنى وقتها نحو استخدام البلاغة الانجليزية فقلت له مرة أخرى « واذا سمحت لى فانه يسعدنى جدا أن أكشف عن عيوبك الأخرى فى الوقت والمكان الذى تختاره ، وأؤكد لك يا سيدى بأنه اذا أتيحت لى الفرصة لأطأك بقدمى . فاننى لن أنحنى وقتها وأنا أضربك بنعلى هناك . . أسعدت مساء يا مستر هيرتوج ! »

* * *

وتوجهت الى « هوستل الطلبة » لأنام وارتميت على فراشى وبدت لى « جريتا » و « هيرتوج » كأنهما مجرد شخصيات فى قصة أنتهيت من قراءتها توا ..

* * *

وأيقظنى من غفلتى صوت حارس « الهوستل » يبلغنى بأن شخصين من فندق رويال كيزويك يرغبان فى مقابلتى وطلب منى الا أستبقيهما طويلا ، لأن الوقت متأخر ، وقد أوشك أن يغلق أبواب « الهوستل » ..

* * *

وتوجهت على الفور الى « الفراندة » التى تحيط بالهوستل لمقابلة الزائرين الغريبين . وهما جريتا وشقيقها جان اللذان حضرا ليعتذرا لى عما حدث فى الفندق وقال لى جان أن فرديك كثيرا ماتيملكه جنون الغيرة بالنسبة لجريتا وعرض على أن أتناول معهما الطعام فى الفندق . بعد أن أبلغنى بأن فرديك قد انتقل الى فندق آخر ..

وتطلعت الى جريتا . لأنه كان من الواضح انها هى التى اقترحت دعوتى الى تناول الطعام معهما وبدت منها هذه الكلمة « أرجوك » .

وبدت لى جريتا فى ذلك الحين فى صورة تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التى بدت فيها على شاطىء البحيرة ، كما انها بدت فى صورة تختلف عن صورة السيدة التى كنت معها منذ اثنتى عشرة ساعة فقط .

وغمرتنى صورتها الجديدة بفيضان من قوة قاهرة ، اغرقت معها ذكرى كل ماحدث فى ذلك اليوم وأسرعت قائلا « أشكركما على هذه الدعوة . ويسرنى أن البيها » .

***

وبقيت وحدى افكر . ورايت اننى أحمل بين جوانحى حبا عظيما نحو فتاة من جنوب افريقيا لم تزد معرفتى بها عن ساعات وانها مخطوبة بالفعل لشاب يمتلىء قلبه بالكراهية المرة نحو الجنس الذى انتمى اليه . ووجدت انه بقبولى الدعوة الثانية لزيارتهما ؟ ابدو كأننى اتقدم متعمدا ، خطوة اخرى نحو مجرى من الماء اجهل عمقه ولم تتح لى فرصة دراسة تياراته واوقات مده وجزره . وادركت اننى اتعرض لاخطار لاتهدد شخصى وحدى ولكنها تهدد مستقبلى ايضا .

وعدت اتحدث الى نفسى مرة اخرى . فى محاولة للتخفيف من هذه الاخطار قائلا : ان المطلات المدرسية تكفىوحدها ، عندما يجىء موعدها ، لتناسى هذه الاحلام .. ثم ماذا يضر لو استطاع الانسان ان يستمتع بساعات قليلة بريئة فى صحبة فتاة .

وساعدت هذه الأفكار على طرد مخاوف الاخطار التى ساورتنى فاستغرقت فى نوم عميق .

وطلع على الصباح التالى . مشرقا . واستقر رايى علىمغادرة اكيزويك ، بعد تناول الطعام مع جريتا وشقيقها جان الذى قررت أن أطلب منه الاحتفاظ بملابس الرحلة معه . الى حين الانتهاء من تناول الطعام وبعد رحلتى الصباحية القصيرة فى وادى «ديرونت» القريب .

***

قابلت جان فى بهو الفندق . وقد وافق على الفور أن يحتفظ عنده بملابس الرحلة . وقد بدا عليه انه استعاد روحه المرحة .
واقبلت علينا جريتا فى الوقت الذى كنت أحاول فيه الانصراف .
وبدت لى هى الاخرى وقد طرحت عن نفسها ذلك القلق والانزعاج الذى خلفته حوادث الليلة الماضية . وعادت مرة اخرى لتذكرنى بموعد الغداء . واقترحت أن تشاركنى هى وشقيقها فى رحلتى الصباحية .

وهنا قال شقيقها جان : « قد لا يرغب السيد كامارا فى صحبتنا هذا الصباح . والى جانب هذا فقد امضيت الأمس بطوله فى عمل متواصل . واحب أن استريح اليوم » .

فقالت جريتا : دع السيد كامارا يتحدث عن نفسه .. فكان جوابى انه يشرفنى صحبتكما لى . ولكن جان عاد واعتذر بدوره .

***

ومضيت انا وجريتا فى نزهتنا الصباحية . وفى ذلك الصباح الذى كان اسعد ما طالعتنى به الدنيا .قضينا وقتا فى القراءة . والبحث فى مشاكل بلدينا . ويبدو اننا كنا ندرك بأن هذا التقارب الذى يجمعنا اياه سحر الطبيعة . كان يعنى زيادة فى التقارب بيننا

***

كانت رحلتنا هذه . رحلة البداية فى سلسلة الرحلات المتشابهة خلال الاسبوعين التاليين . ولقد اصبحت الآن ولا مفر لى من التراجع . واخذت أنا وجريتا نتابع رحلاتنا اليومية . لكشف منطقة البحيرة . وليكشف كل منا عن صاحبه . وابلغتنى « جريتا » أنها فسخت خطوبتها الى فردريك فى ذلك المساء الذى شهد حادث زيارتى له . بعد أن ظهر لهما اختلافهما فى الرأى بشأن التفرقة العنصرية . مما يجعل حياتهما الزوجية مستحيلة فى بلادهما ، وقد بدا لى أنها ترغب فى صحبتى لاتفاقنا فى التفكير والتجارب . وهو ما عجز عنه فردريك .
وتتوالى الرحلات . تراودنى خلالها فكرة الزواج من جريتا .

والمشاكل التى تعترض هذا الزواج . على اننى على كلّ حال ، لم اجرؤ على مفاتحتها فى هذه المسألة .

***

لم نسمع شيئا عن فردريك الذى كنا نعتقد انه يقيم فى مكان آخر مجاور .. وبعد يومين او ثلاثة .. كانت رؤيتنا لجان نفسه نادرة .

***

لقد ادركت أن العاطفة التى شدتنى شدا الى جريتا . لم تكن عاطفة الحب . ولكنها كانت عاطفة الافتتان الجنونى الصارخ .

كنا لانزال فى سن مبكرة . وكان كل منا قد افتتن بصاحبه ، واخطر من هذا . اننا كنا نمارس أول تجربة لنا .

والذى أعلمه ان عاطفةالحبوالافتتان التىتجمع بينشخصين ، يختلفان فى الجنس ، تكون اشدعنفا وقوة . لأنها منتزعة منضدين ، اذا لمس احدهما الآخر . وقع الانفجار وحدثت الكارثة . ولو كانت عاطفة الحب التى شدتنا الى بعضنا ، أقل قوة . وكان السبيل قد تهيأ أمامنا لوزن الاخطار التى نعرض انفسنا لها . لكان قد تهيأ لنا أن نفكر على الاقل . فى ان نتمهل وان نضع حبنا فى بوتقة الزمن . على سبيل الاختبار .

***

ولكن الذى حدث هو اننا اندفعنا فى الطريق .. وانذرنا رياح الاخطار بأننا لانعبأ بما تحمله من تهديد .. واسرفنا فى الوعود بأن يظل حبنا خالدا الى الابد .

***

ونسيت آخر رسالة من ابى . والآمال والقلوب والانظار التى تتجه نحوى ونحو مستقبلى .

***

ووقعت الكارثة فى ليلة من ليالى الصيف ، قضيتها معهاجنباالى جنب .. وكانت قد احضرت معها غطائين بدلا من غطاء واحد ..

وفى نيتها أن يضمنا فراش واحد ؟ وطلع علينا الفجر . وهـدات بطلوعه عواطفنا المشبوبة .. ووقفت امامنا عقولنا تتحدث الينـا وتسائل وتحاسب .

وهكذا .. وبعد أسبوعين من الافتتان الصارخ ، شربنا رحيق الآلهة الذى كان مذاقه حلاوة مريرة .

***

وصحونا عند الفجر . فى تفكير صامت . واخـذت افكر فى افريقيا . واخذ تفكيرها يتجه بدوره الى افريقيا أيضا .

***

وفى المساء . كنا نجلس الى مائدتها فى الفندق . دون ان ناكل واحسسنا بأن هناك فاصلا بيننا . واخذنا نبحث عن الكلام دون جدوى . وبدا أن كلا منا يرغب فى ان يتحدث الى نفسه وحدها . وشعر كل منا بأن هناك جروحا عميقة أصابتنا من الداخل واننا فى حاجة الى بلسم ودواء .

***

وغادرنا الفندق دون أن نمس عشاءنا .. واخذت ذراعها فى ذراعى . واندفعنا فى الظلام الى الطريق . وطرق أسماعنا صوت موتور سيارة يتأهب للحياة . ولم نلق بالا اليه . فقد كانت عقولنا سادرة فى لجة من التفكير العميق الذى لا يسمح لها بأن تفكر فى مثل هذه الامور التافهة .

واخذ صوت الموتور يرتفع ولكن السيارة لم تضىء أنوارها ! ووقفنا فى نصف الطريق .. لا عن فزع ولكن عن دهشة .

وفوجئنا بالسيارة تندفع نحونا . وحاولت يائسا انقاذ جريتا ، وسمعت صيحات من ألم فظيع تئن بها جريتا . ثم فقدت وعيى بعد ذلك .

- ٧ -

عثرت على نفسى فى الليلة التالية . ممـددا فى المسـتشفى لا استطيع تحريك ساقى اليسرى .

وعندما عاد الى صوابى . كان أول ماسألت عنه هو جريتا ، وكان الجواب على سؤالى نظرات الاشفاق التى وجهتهـا الى ممرضتى والتى اغنت عن كل حديث .

وظلت حياتى معلقة على خيط رفيع طوال أسبوع . وعنـدما علمت أن اصابتى ليست مميتة ، بدأ ينتابنى شعور محرق للانتقام وأخذ الثأر لمقتل جريتا . وكنت كلما سمح لى الاطباء .. اتحدث الى ضابط البوليس عن الحادث . وكان ضابط البوليس بدوره يؤكد لى ان كل شىء قد اتخذ للتعرف على السيارة وسائقها .وفى مرة اخرى شرحت لضابط آخر أن سائق السيارة تعمد الاندفاع نحونا . ونحن نقفز من منتصف الطريق فى التماس النجاة .

وابلغت ضابط البوليس عن اسم « فردريك » وعن القصة الكاملة لعلاقتى بجريتا وشقيقها وفردريك .

***

ونمر ثلاثة أيام دون الوصول الى معـلومات تكشف عن سر الحادث .

والاسوا من هذا . أن فردريك استطاع أن يقنع رجال البوليس بأنه كان فى طريقه الى لندن يوم الحادث وساعته . وأن شقيقها جان استطاع ايضا اقناع رجال البوليس بأنه كان فى مكان آخر يوم الحادث وساعته ايضا .

وبلغ من شدة اصابتى وتأثير الحادث . أن اضطر الاطباء الى عزلى وفحصى نفسـانيا . فقد خشى الاطباء أن يكون قد أصابنى مس .

وبدات استعيد صحتى وأطالع الرسائل التى وردت الى من

« ساجرسا » وكتبت الى والدى عن تفاصيل الحادث دون ان أشير في خطابى الى جريتا .

وقررت ان امضى فى طريقى لجمع الادلة التى تثبت على « فردريك » تهمة قتل جريتا .

وزارنى صامويل . الذى حاول عبثا العثور على . وقد فرح صامويل لرؤيتى . ولكننى كتمت عنه قصة جريتا .

وغادرت المستشفى فى منتصف الصيف . وليس فى جيبى سوى خمسة جنيهات . اذ كنت قد انفقت مبالغ المنحة المدرسية كلها فى الاستشارات القانونية التى قمت بها لاتهام فردريك . وهى الاستشارات التى نصحنى المحامون بانه لا امل مطلقا فى اتهام فردريك . اما بقية اموالى فقد انفقتها فى مصاريف علاجى .

وانتقلت الى ليفربول . بحثا عن عمل . ينسينى ذكرياتى واكتسب منه مايساعدنى على أعباء الحياة . ومواصلة الدراسة .

وفى ليفربول ايضا . ادركت أن رجال البوليس والمحامين كانوا على حق . وأنه لا سبيل الى اتهام فردريك وأن حكاية جريتا وقصتها قد انتهت .

***

وجعلت أطالع الصحف بحثا عن الوظائف الخالية . ويجب أن أقرر هنا بأننى كنت أبحث عن وظيفة تليق بتعليمى وتتفق مع ثقافتى ولكنى حاولت عبثا ، ومنعنى كبريائى من التماس المعونة من مكاتب المساعدات .

ويبدو ان لونى قد لعب دورا خطيرا فى حرمانى من الوظائف الكتابية الخالية .

والذى اذكره اننى عثرت على وظيفة كتابية خالية .واتصلت بأصحابها تليفونيا فقالوا ان الوظيفة لاتزال خالية وانهم فى انتظارى لاختبارى شخصيا . وعندما وقع نظرهم على أجابونى بأن الوظيفة قد شغلت ! .

ولا شك ان لونى قد لعب دورا كبيرا فى هذا الرفض الفاجىء .
وأن لونى يناقض تماما صوتى فى التليفون .

وضاقت بى السبل . وفى ليلة ما . خرجت اهيم على وجهى
وفى اعتقادى أن هناك اسبابا اخرى تحول بينى وبين شغل احدى
الوظائف اللائقة . وفى تلك الليلة . قادتنى قدماى الى مقهى يضم
الافريقيين الذين كانوا يحاولون نسيان متاعبهم وهمومهم فى كئوس
الخمر التى يعبونها عبا .. وفى رقصهم وغنائهم . وادركت حينئذ
ان هذه الكثرة الهائلة من المهاجرين الملونين فى بريطانيا ، تلعب دورها
فى تنمية الشعور الزائد فى بريطانيا . وهى الا يسمح لغير الرجل
الابيض بشغل الوظائف التى يرى نفسه فى حاجة اليها .

ادركت وقتئذ اننى اذا كنت فى حاجة ملحة الى العمل . فيجب
على أن اتنازل بعض الشىء . والا تتطلع عيناى الى ما كنت أسميه
بالوظيفة اللائقة بثقافتى وتعليمى .

***

واخيرا . عثرت على الوظيفة . وهى حارس ليلى فى مخزن
للبضائع فى طريق ريجنت . ولم يكن لتلك الوظيفة من المزايا الا
اننى كنت فى خلال طوافى حول المبنى . استأنف مطالعاتى فى الادب
الانجليزى الكلاسيكى . على أن زمهرير الليل .. اثناء فترة عملى
والضجيج الذى كان يقلق قدمى فى المسكن الذى كنت اقيم فيه فى
شارع مجلس النواب . وهو الضجيج الذى كان يحول بينى وبين
النوم نهارا . ويضطرنى الى الاغفاء فى ساعات عملى الليلية .
جعلنى كل هذا اسعى للحصول على وظيفة اخرى . وفى خلال
أسبوع واحد . تمكنت من الحصول على وظيفة كتابية صغيرة فى
احد مخازن السفن . وكان العثور على هذه الوظيفة . بمثابة ترقية
جديده لى . وقررت وقتها ان أؤدى واجباتى جيدا .

***

ويدهشنى الآن تلك السهولة واليسر اللتين كنت اعالج بهما

اموری المنزلية فی ذلك الحين .. ولا شك ان الايام التی قضيتها فی الارسالية لعبت دورا كبيرا فی هذه السهولة .

وقد تعلمت وانا فی ليفربول الا اخفی اعجابی الشديد بهؤلاء العمال الذين يعملون علی ظهور السفن او فی احواضها فقد كانوا من اصحاب القلوب الطيبة . علی الرغم من لغتهم المبتذلة فی بعض الاحيان . وكان الواحد منهم يفخر بعمله . سواء كان عملا يدل علی المهارة . او لا يدل عليها . وكان ولاؤهم عجيبا وصادقا فی مشاعر المحبة بينهم .

واستفدت الكثير فی خلال شهر واحد من عملی وقد تعلمت الكثير عن حياة الانجليز ولغتهم ، وبدأ تفكيری بعد ذلك يتجه الی المستقبل الذی بدا لی مظلما وفكرت فی الاتصال بصامويل لاستعين به علی استئناف دراستی ولكننی عدلت عن ذلك . فالذی اعرفه عن صامويل انه لن يتردد فی تعريض مستقبله للاخطار . فی سبيل مساعدتی . وانه لن يتردد ابدا فی ذلك .

***

وتقودنی قدمای الی كاتدرائية شارع مجلس النواب واستمع هناك الی موسيقی الترانيم ، وفی ختام الترانيم . اظل وحدی فی مقعدی حالما مفكرا ، والمح رجلا وامراة يقتربان منی ويحاولان التحدث الی ، واحاول الاعراض عنهما . اذ لم تكن لی رغبة فی الاتصال بأی انسان غريب عنی كما اننی وجدت نفسی يكاديقتلنی الخجل فلا أستطيع ان اتحدث الی سيدة بيضاء .

وبدأ الرجل حديثه قائلا : انها موسيقی رائعة بلا شك وفهمت منه ان تذاكر حضور الحفلة الكبری يوم الاحد قد نفدت جميعها وعرض علی أن يمنحنی تذكرة عند زيارتی له فی منزله .

ودعانی الرجل هو وزوجته للعشاء ، وجعل يسألنی كيف وصلت الی ليفربول .. ورويت له كيف وصلت اليها قادما من قريتی « لوكو » .

قال الرجل علی الفور « لوكو » فی مستعمرة سونجهای ؟ بلد الماس ؟

واكتشفت على الفور أن مضيفى من المشتغلين بتجارة الماس.

قال الرجل : ان الذى اعرفه أن عمليات تهريب الماس قائمة على قدم وساق فى سونجهاى .

قلت له : يبدو أن ذلك صحيحا . وأنه من الصعوبة بمكان وقف هذه العمليات أو الكشف عنها .

قال الرجل : ان عمليات التهريب تجرى هناك على نطاق واسع. ومن القصص التى تروى هناك أن أحد الرجال اعاد بناء كوخه من جديد لاخفاء قطع الماس التى لم يحسن اخفاءها بين جدرانه .. ولاشك أن هذه القصة تنقصها الدقة . ولكن رجال الجمارك والمحامين يعلمون علم اليقين ، بأنه اذا ألقى القبض على مهرب واحد . فهناك عشرة آخرون يقومون بعملياتهم بعيدا عن الرقابة.

***

وتطرق الحديث بينى وبين الرجل الى ان ادرك أخيرا اننى أحمل معى قطعة من الماس .. وهى ذلك الكنز الذى اوصانى به والدى الا افرط فيه .. والذى لا يعلم احد اننى احمله الا « صامويل » .

***

واخذ الرجل يتطلع الى قطعة الماس التى بهرته وقال لزوجته: أن قطعة الماس هذه يساوى ثمنها هذا المنزل الذى نقيم فيه ، وما يحتويه من اثاث ورياش !

واخذ مضيفى « موريس » يسألنى اين تعلمت الانجليزية وماهو نوع الدراسة التى أتلقاها فى بريطانيا ؟ . وقال لى انه عندماشاهدنى لأول مرة فى الكاتدرائية ادرك أن هناك مايشقينى وانه اعتقد بأنه قد تكون موسيقى باخ « دموع الاحزان » هى التى اثارت فى نفسى مكامن الاحزان .

ولم أشأ أن أجيبه عن سؤاله . فاكتفيت بقولى : ان الانسان فى الحياة يظل دائما فريسة للصعود والهبوط .

واخذت افكارى تتجه من جديد الى قطعة الماس الموضوعة فوق المائدة . ومرت الامسية سريعا فى بهجة وسرور . واستأذنت من مضيفى فى الانصراف شاكرا لهما حسن وفادتهما وكرم ضيافتهما .

***

وتساءلت ، وانا فى طريقى الى المنزل . كيف غاب عن تفكيرى امر هذه الماسة . ولكن السنا ننسى فى الغالب اكثر الاشياء التصاقا وقربا بنا ؟ اليس فى هذه الماسة الحل البسيط لمشاكلى الدقيقة؟ .

وقد حدث بعد الحفلة الموسيقية أن عدت مع موريس الى منزله . وأبلغته اننى اصبحت مفلسا وطلبت منه أن يعمل على التصرف فى الماسة لاتمكن من اتمام دراستى فوراً .

قال موريس : أن الامور ليست بالسهولة التى تراها .. ثم لماذا لم تبلغنى عن متاعبك المالية قبل الآن ؟ .. اذن لأسرعت من فورى وعرضت الماسة على احد أصدقائى وانقذتك من ليالى القلق التى تساورك .. ومع ذلك فسأقوم غدا بعرض الماسة على أحد أصدقائى من المشتغلين بصناعة قطع الماس .

ويبدو اننى كنت قلقا ومتلهفا على الحصول على المال . فقلت لموريس : اننى ارغب فى التصرف فيها او فى قطعة منها لشدة حاجتى الى المال .. ثم لماذا لانجرب رهنها عند أحد السماسرة .. كلها أو جزءا منها .

قال موريس : ان الرهن لايجدى .. ثم ان المشتغلين بعمليات الرهن لايعرفون مدى قيمتها .. اما اقتراحك بأن تتصرف فى قطعة منها . فلا يمكن ان يتم ذلك قبل عرضها على أحد أصدقائى المختصين .

وطلب منى موريس ان ازوره فى نفس اليوم ليبلغنى بما حدث .

***

وهكذا جاءت ماسة والدى فى الوقت المناسب وحصلت على مبلغ من المال . فى مقابل بيع اجزاء منها . تكفى أرقامه لتقديم

هدايا الى موريس وزوجته وأن أدفع لصديق موريس أجرا مجزيا . وأن أعود مرة أخرى الى جامعة كنجز . وأن أحتفظ الى جانب هذا بمبلغ محترم من المال .

***

وقبل أن اغادر ليفربول . وجدت انه من المحتم على ان ادخل كاتدرائية المدينة مرة اخرى . فتذكرت على الفور مقابلة موريس لى هناك . وكيف بدات الغيوم تنقشع وتصفو سماء حياتى فى تلك الكاتدرائية .

وهناك توجهت بالشكر الى الله . الذى تعلمت منذ طفولتى انه لا يغفل عن مصائر الذين يسعون بكل ما يملكون من قوة وعزم . الى حياة افضل .

- ٨ -

مرت الأسابيع الثلاثة الأخيرة فى كلية كنجز مرورا سريعا .. امضيتها كلها فى عمل شاق متواصل والواقع .. فقد كان على جميع الطلبة الافريقيين الا يتركوا لانفسهم فرصة للراحة فى تلك الجامعات حتى يكونوا هم وزملاؤهم من الطلبة البريطانيين على قدم المساواة ..

واستأنفت اتصالى ، فى خلال تلك الفترة ، بصديقى « صامويل » الذى خانه الحظ . شأنه فى ذلك شأن بعض الطلبة الذين لا تعوقهم العقبات عن السير فى طريق النجاح . ثم يصادفهم الحظ السيىء، فتقف فى طريقهم عقبة . يتعثرون عندها .

ويؤدى به سوء الحظ الى أن يفقد منحته الدراسية بعد ثلاث محاولات فاشلة لا تنتهى بحصوله على الشهادة الدراسية النهائية فى الطب . فيتحول فى دراسته من الطب الى القانون . وكانت موارده المالية قد نفدت فراح يستعين بالمساعدات التى كانت تأتيه من أهله وأصدقائه . وقد قبل أخيرا . بعد اعتراض والحاح . معظم المبالغ التى اقتصدتها نتيجة لتصرفى فى الماسة . على أن تكون قرضا يوفيه فى حينه .

وكان صامويل . صاحب العقليـة المبتكرة الخلاقة يعتمد فى كسب نفقاته الخاصة . عن طريق الافكار الاعلانية المبتكرة . التى كان يبيعها للمؤسسات التجارية .

وكان صامويل قد انتقل من لندن الى نيوكاسل . وأقام معى فى مسكنى ، اذ قرر ان يدرس الاقتصاد أولا قبل أن يمضى فى دراسته للقانون ..

كان صامويل « بائع الأفكار » صاحب عقلية مبتكرة خلاقة كما قلت . وفى احدى الأمسيات جلسنا معا نعدل ونصحح فى احدى افكاره المبتكرة .

كان الغرض من فكرته الجديدة ــ كما يقول ــ هو مساعدة الشركات على الاستغناء عن خدمات المحصلين « الـكمسارية » وتقوم على اساس ان يضع الراكب قطعــة من العملة ــ عن قيمة المسافة التى سيقطعها ــ فى آلة معقدة تلحق خلف المقعــد الذى سيجلس عليه الراكب ، وعند نهاية المسافة التى دفع عنها الراكب اجرته ، يسقط المقعد أتوماتيكيا ــ وفى كثير من الرفق ــ بالراكب معلنا ان محطة الوصول قد حلت ! . وان قيمة اجره قد انتهت ! .

والذى حدث بعد ذلك أن صامويل باع بالفعل فكرته الجديدة لاحد الاشخاص الذى توجه بها فورا الى مكتب تسجيل براءات الاختراع لتسجيلها . والذى لم يسمع عنه شىء بعد ذلك . وقيل ان أعضاء اتحاد نقابات « الكمسارية » كمنوا له فى الظلام ولقنوه درسا لن ينساه !.

* * *

وانتهيت من دراستى بنجاح وقررت العودة الى بلادى . ولم اشأ أن اترك صديقى صامويل دون ان اقدم له المبالغ التى اشتركنا فى اقتصادها . لتساعده فى مواجهة مشاكله المالية لفترة محدودة .

ولم اشأ انتظار حفلات التخرج الرسمية ، فقد أستبد بى شعور طاغ بضرورة العودة الى الوطن بعد نجاحى فورا .

كنت أنا وصامويل ، فى خلال العام الاخير لدراستى فى بريطانيا ، نتتبع باهتمام التطورات السياسة فى بلادنا ، وكنا نطالع ما تأتينا

به الصحف التى تصدر فى بلادنا عن انباء هذه التطورات . وغالبا ما كنا نقضي الليالى فى مناقشة التقدم البطىء الذى يقوم به زعماؤنا السياسيون فى سونجهاى ، فى سبيل حصول البلاد على استقلالها وماذا يجب عمله للاسراع فى أن تنال البلاد هذا الحق المقدس .

وفى الليلة الأخيرة لوجودى فى نيوكاسل ، اقسمت أنا وصامويل بأن نعمل معا ، وبأسرع وقت مستطاع لكى تنال بلادنا استقلالها ، وتخليص وطننا من قبضة الاستعمار وادرانه . وحررنا وثيقة بذلك ، وقعت عليها انا وصامويل ، وهى الوثيقة التى احتفظ بها الى الآن . كأعز ما أملك فى الحياة .

* * *

وعدت الى وطنى بعد خمس سنوات ، وبدا لى ان اشياء كثيرة قد تغيرت وتبدلت . فقد ادركت شركات الملاحة اخيرا انها ستخسر الكثير اذا رفضت قبول هذا العدد الهائل من الركاب الافريقيين بالدرجة الاولى ، وقصرت ركوبها على ذلك العدد القليل من الاوربيين وحدهم .

وظهر لى ايضا ان ميزان القوى بدا يميل فى افريقيا نحوتحطيم حواجز اللون والجنس ، وبدا سعاة السفن من الأوربيين يجرعون الحبات المرة التى كانوا يقدمونها فى تعاليهم وتشامخهم الى الافريقيين من قبل .

وكان من دواعى غبطتى ، او تسليتى ، منظر هؤلاء وقد تبدلت طباعهم . فاذا بهم يعرضون خدماتهم على الركاب الافريقيين فى غير حمد . وفى محاولة استرضائهم فى معظم الأحيان .

وثمة امر آخر ، اعتبره بمثابة تحول هام ، هو ان السفن أصبحت تستخدم سقاة من الافريقيين . الذين اصبحوا بدورهم موضع الرضا والاحترام من جانب زملائهم الأوربيين ومن جانب الركاب الأوربيين على السواء .

والواقع أن هذا التحول الخطير الذى شاهدته على ظهر السفينة ، قد اثار لهفتى على الوصول الى الوطن سريعا لأرى بنفسى

مدى ذلك التحول الذى حدث هناك فى خلال تلك السنوات الخمس .

* * *

ووصلت الى ارض الوطن لاجد ان أهلي وقومي قد تجرعوا أيضا تلك الحبات المرة ،الكبيرة العسرة الهضم ، وهى حبات المادية فى المدينة الغربية .

كانت معالم البلاد قد تغيرت .. مبانيها وجسورها وطرقاتها وحوانيتها . على أن أكثر ما لاحظته هو ما حدث فى اتجاهات التفكير ونواحي التصور عندهم .

على أن اكثر ما ازعجنى هو الدوافع الجديدة التى بدأت تدفعهم الى العمل ، وأسس العلاقات الجديدة بينهم .

وفاجأنى تحول آخر خطير .. هو رغبة الناس الملحة فى الوصول الى القوة بسرعة ، وفى الاثراء سريعا ، وهى صفات كلها جاءت على نغمات الاستعمار الغربى وموسيقاه التى ملأ بها البلاد .

ولعبت عمليات تهريب الماس دورا خطيرا فى التحول الكبير الذى طرأ على الاخلاق والمعاملات . وامتلأت شوارع المدينة بالسيارات التى كانت تستخدم استخداما غشيما . فلم يقتصر استخدامها على الركوب وحده . وانما استخدمها البعض كحجرات للنوم أو لاستقبال الضيوف .

وكان « موسى » واحدا من هؤلاء الذين اثروا سريعا ، والذى أعرفه عنه انه لم يكن يملك الا القليل عند مغادرتى البلاد .وعند عودتى اليها . كان قد انتهى من اللمسات الاخيرة لمنزله الفخم فى « ساجرسا » وهو المنزل الذى لم يكلفه الا مجرد رحلات يقوم بها الى لندن عن طريق لبنان . بعيدا عن أعين رجال الجمارك بما كان يحمله من قطع الماس .

* * *

لقد ظهر لى أن هذه النزوات التى استبدت بالناس فى سبيل الحصول على الربح الحلال . هى التى جعلتهم يدوسون على المثل العليا وتحمل المسئوليات الملقاة على عواتقهم نحو بلادهم .

وأصبح الكفاح من أجل لقمة العيش في ساجرسا صعبا وعنيفا بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لم تهبط عليهم تلك الثروات المفاجئة وارتفعت الاسعار نتيجة لتلك الهجرات المتلاحقة للعمل في المناجم .

وطرا تحول خطير على العائلة وعلاقة افرادها بعضهم ببعض وهي العلاقات التي لم يكن يدور بخلد أحد انها ستكون موضعا للتغيير في يوم ما .. وبدأ كأن الترابط العائلي ، الذي كان ركيزة الحياة الاجتماعية في البلاد . قد ذهب به بريق الماس ، واودى به تلك « الفردية » التي نشر الاستعمار الويتها بين العائلات وهذا التمجيد الدائب له .

* * *

وظللت الشهور الطوال وأنا أرفض الايمان بهذه الفكرة الجديدة وهي أن اتخلى عن أية مسئولية نحو كائن من كان ، الا ان أكون مسئولا عن نفسي لاغير .

وتقلدت وظيفتي الحكومية الجديدة وهي مدرس في المدرسة الثانوية بقريتي « لوكو » وكنت احصل على مرتب يكفيني الحياة التي كنت أحياها ، وكان عملي مريحا بعض الشيء ، وكان الذي يدور في خلدي أن الحياة ستستمر هكذا . وكنت قد تركت جانبا ، والى حين ذلك الوعد الذي كتبته على نفسي انا وصامويل بأن نعمل سريعا نحو استقلال البلاد ، وكان في حسباني أني سأمضي في الحياة هكذا . والى وقت طويل . الى أن وقعت عيني ذات مساء على احدى الصحف البريطانية .

كانت فرصة اطلاعي على تلك الصحيفة من الفرص التي لن أنساها أبدا . ففي ذلك الحين كنت أعيش في دوامة غريبة من التفكير في بلادي ، تطن في اذني هذه العبارات التي كنت أسمعها وهي : « كل انسان مسئول عن نفسه ، وليأخذ الشيطان ما يبقى بعد ذلك » وهو الكلام الذي وجدت انه ليس من الولاء للوطن أو العائلة أو القبيلة ان اقبله كقاعدة .

وكان قد مضى على وقت طويل منعت فيه نفسي من مطالعة

الصحف المحلية التي بدت رخيصة في مظهرها وفيما يكتب فيها .. مما دعاني الى أن أقصر قراءاتي على الصحف الأجنبية .

والذي آلمني في صحافتنا الحالية أيضا ميلها الى الاثارة ونشر الأخبار المثيرة ، والذي اذكره تلك القصة التي نشرت حول لصوص الحقائب .. وكيف ان واحدا من هؤلاء اللصوص - كما قالت تلك الصحيفة - .. فكر في التماس الهرب والافلات من مطارديه .. ووجد ان الوسيلة الوحيدة هي أن يفرغ بعض ما كانت تحويه الحقيبة المسروقة من نقود تحت أقدام مطارديه اثناء فراره .. وقد نجحت الفكرة .. وانشغل المطاردون له في جمع أوراق البنكنوت عن مطاردته !

ولا شك ان الحادث .. هو صورة اخرى من تلك الصور التي يتعلمها اللصوص في هوليوود واذا كانت « أفريقيا » قد «تمدنت» بهذه الصورة ، فان ذكراها أصبحت تؤلمني !

***

في ذلك المساء وقعت عيني على مقال نشرته احدى الصحف البريطانية تحت عنوان « جنوب افريقيا » وهذا الخبر مؤداه : ان حكومة جنوب افريقيا بعد أن انتهت من حرمان الملونين من الادلاء بأصواتهم في الانتخابات العامة ، قررت عزلهم في أحياء خاصة بهم تشبه المخازن ..

اغمضت عيني في ألم ، لم تبرح مخيلتي تلك الصورة الحزينة القاتمة التي كتبها صاحب المقال .. وكيف ان رجال البوليس من البيض جردوا السكان الوطنيين من منازلهم ليقيم فيها البيض . ولم يكن هناك مايبرر ذلك الطرد الا ان تلك المنازل كانت تمتاز برحابتها واتساعها ، وكان هؤلاء السكان قد انذروا بانهم سيطردون من منازلهم في خلال اربع وعشرين ساعة ، وقبل أن تمضي دقائق معدودة من ذلك الانذار ، توجه رجال البوليس البيض . لتنفيذ أمر الطرد فورا . ونشرت الصحيفة ايضا صورة قاتمة ظالمة لما حدث وهي صورة أحد رجال البوليس من البيض وهو يجر سيدة وطنية كانت تصرخ احتجاجا على طردها من منزلها . وكان رجل

البوليس يدفع السيدة الى لورى قريب كما لو كان يدفع حيوانا وليس انسانا .. ومما زاد من احزانى ومن بشاعة الحادث وشناعته . ان تلك السيدة كانت حاملا ..

وتركتنى الصورة بلا حراك ، شعرت بعدها كأن دمي يغلى فى عروقى ، ثم شعرت بعدها بموجة عمياء من الغضب تستبد بتفكيرى وكيانى ..

ولست ادرى كم من الوقت مضى على وانا على تلك الحال .. ولكن الذى اذكره اننى بدات اعود الى نفسى مرة أخرى ، ثم اخذ بدنى يرتجف فى عنف وشدة ، وسرت البرودة فى جسمى ، ووجدت نفسى مضطرا الى تدفئة نفسى ..

تمر بنا الحوادث كل يوم وكل ساعة ، وبعضها يترك فى النفس اثرا باهتا ، وبعضها لا يمحى اثره ابدا ، وقد تسعفنا الذاكرة على نسيان الكثير من الحوادث ، وقد يختفى مجرى الماء الذى يسير فى الغابة حينا من الزمن ، ولكنه حتما سيعود مرة أخرى الى الظهور ..

وبدت لى فى تلك اللحظات ، صور حية من الماضى الذى عشته .. والتى بدات بزيارتى الأولى «لساجرسا» العاصمة ، والصبية التى كانت تستحم تغمرها السعادة وقت سقوط الأمطار ، ومظاهر الحيرة والارتباك التى لازمتنى عند وصولى الى ليفربول ، وذلك الحلم الذى تحول الى كابوس خلال رحلتى الى منطقة البحيرة .. وبدت لى نفسى فى تلك اللحظة ، اقل ما مر بى من تجارب .

***

وصحوت من نومى منتعشا ، وكنت ادرك تماما فى صباح ذلك السبت ما استقر عليه رايى . وامضيت يومى فى مكتبى أكتب الى «صامويل» وكنت أدقق فى اختيار الكلمات والمقترحات .. أجل.. ففى خلال الليلة السابقة صحت عزيمتى أخيرا على أن أمضى قدما فى تنفيذ القرار الكبير ، وهو ان اكرس نشاطى للاشتغال بالسياسة .. حتى يمكن ــ ابتداء من « سونجهاى » ومنها الى افريقيا كلها ــ

ان يتحرر النـاس من السـيطرة التى فرضهـا عليهم الاستعمار والاستعماريون ..

وتضمنت رسالتى الى «صامويل» ان يفكر فورا فى امـكان عودته سريعا لمساعدتى فى تأسيس حزب سياسى فى البـلاد .. وقلت له اننى لا اطلب منه هـذا لمجرد انه من «ساجرسا» واننى من أهل الشمال ، وان اشتراكنا فىعمل سياسى مشترك له اهميته .. ولـكننى أعرض عليه هذه الفكرة لاننى أكبر منـه سـنا .. وانه اشد أصدقائى اخلاصا . وأبديت له ايضا مدى اعجـابى باختراعاته وبعقليته الخلاقة . وان صفاته كلها تعتبر مدخرا لعملية التخطيط للكفاح السياسى الذى اتصوره فى عقلى .

***

وتوجهت بعد ذلك لزيارة والدىّ ، وفى نيتى أن أطلب منهما اختيار زوجة من قريتنا ، ولست أشك فى انهما سيفاجآن بذلك، لاننى كنت أول الافريقيين الذين يتلقون علومهم فى الخارج ويتحول عن العادة المـالوفة ، وهى الزواج من أجنبيـة ، او من افريقيـة تلقت هى الأخرى علومها فى الخارج ، على اننى قررت الزواج من قروية ليتم لى بذلك الانفصال النهائى عن العـادات الغربيـة فى حياتى الخاصـة ، تمهيدا لـما استقر عليـه الرأى النهائى ، وهو الاشتغال بالسياسة .

وخلال الأسابيع التى تلت ذلك القرار ، لم أضيـع وقتـا من الأوقات التى كنت أخلو فيهـا من الدراسة ، دون ان اقوم بعمل يمهد لحياتى السياسية القادمة ، ويدعم خطواتها ، فجعلت اطوف القرى لأتعرف الى أكبر عدد ممكن من الناس . وكنت أرتدى خلال تلك الزيارات ملابسى الوطنية ، ولم اسمح لنفسى بأن اتحدث بالانجليزية الا اذا دعت الضرورة الى ذلك .

وكتمت عن كل من اعرفه ما اعتزمت عليه ، وما اضمرته فى نفسى ..

وبدأت مشروعاتى السياسية تتخـذ لها شكلا وقالبا ، وكان ذلك على اثر الرسالة التى تلقيتها من صامويل ، والتى قال فيها

أنه قرأ اقتراحي بلهفة وجد .. وان خطابي كان استجابة لسلسلة العادات التي عاش فيها طوال الأشهر القليلة الماضية .

وأبدى والداي سرورهما برغبتي في الزواج ، وبدأت المفاوضات داخل نطاق العائلة لاختيار الزوجة الصالحة لي .

واخذ والداي على عاتقهما مهمة اجراء الترتيبات اللازمة للاحتفال بزواجي ..

وبعثت الى صامويل بنفقات العودة وبدأت في دراسة النشرات والصحف التي بدأت تصلني ، واخذت في تبويب الموضوعات وتصنيفها حسب أهميتها للعمل الذي كرست نفسي من أجله ..

وامتدت رحلاتي وزياراتي هنا وهناك .. ووجهت عنايتي الخاصة الى التعرف الى رؤساء القبائل وغيرهم من ذوي المكانة فيها .. في كل مكان كنت ازوره ، ولم اهمل في الوقت نفسه في عملي ، فقد كنت أعلم ان حاجتي الى الأجر الذي يأتيني منه ستستمر الى وقت طويل ، هذا الى انني كنت اخشى أن يقال عني بأنني اتجهت الى السياسة لفشلي في مهنة التدريس ، لأن معنى هذا كله تدمير مستقبلي السياسي ، ووصمي بالاهمال .

***

وتوجهت الى المطار لاستقبال صامويل .. واغريت مندوب صحيفة «الديلي نيوز» على نشر صورة فوتوغرافية ظهرت فيها وأنا أحتضن صامويل عند وصوله . وقال المندوب في صحيفته : وقد تردد ان هذين الصديقين يعدان الخطة لتكوين حزب سياسي جديد في المستقبل القريب يحمل هذا الشعار « الوحدة الآن .. ثم الحكم الذاتي في خمس سنوات » .

وبدأت أمهد لمولد الحزب الجديد وأنا اتساءل .. هل ياترى يولد هكذا في صمت وسرية ؟ أم تقام لمولده الافراح ؟ ثم ماهو رد الفعل الذي سيحدثه مولده عند الناس ؟

وادركت وقتها .. ان مجرد نشر صورة فوتوغرافية تجمعنى انا وصامويل ، وظهور شعار للحزب ، تعقبه فترة صمت تمتد الى بضعة اسابيع .. كل هـذا لا يكفى لاجتذاب الجماهير ، كمـا انه لا يمكن اعتباره افضل بداية لحياة ومستقبل سياسى جديد ..

ثم ادركت اخيرا ان خير ما يثير الانتباه ، هو ان يكون شـعار الحزب اكثر انطباقا على الواقع . ثم لا باس بعـد ذلك من التزام السرية فى بداية تكوين الحزب .

والحق ، لقـد كان هدفنا الاول من انشـاء الحزب هو حمل الناس اولا على الالتفاف حولنا ، ثم نبدأ بعد ذلك مرحلة الـكفاح والنضال ..

ثم يجب ان اقرر هنا ان الاعلان عن تاسيس الحزب قد اسفر عن نتائج مرضيـة ، لم تكن نتوقعهـا قط فقد اثار اعلانه دهشة معظم الناس ، وسرت بين الشيوخ الهمسات حول تهور الشباب واندفاعه ..

ثم حدث اكثر من هذا ، اذ حضر الى مسكنى ثمانية من الشبان منهم خمسة من الشمال ، وثلاثة آخرون من ساجرسا . جاءوا خلال الاسبوع الثانى من الاعلان عن تكوين الحزب ليتعرفوا على الحزب الجديد .

ويجب ان اعترف هنا بانه ربما كان افتقـارى الى الايمان انا وصامويل .. هو الذى حال بيننا وبين ان ندرك بأن فى «سونجهاى» من الشباب الذين فى سنى انا وصامويل .. من يستجيب هـكذا وبتلك السرعة الى ذلك النداء ..

وتطرق الى تفكيرنا وقتذاك ، ان اكثر الذين ينضمون الينـا بعد ذلك .. قـد تدفعهم الرغبـة الى الانضمام .. رغبتهم فى الحصول على السلطة الشخصية والمزيد من الدخـل او منصبا وزاريا . على ان هؤلاء الثمانية ، والذين استجابوا لدعوتنا هكذا فورا ، وهى الدعوة التى كنا نعتقد بأنها بعيدة عن الحقيقة ، هؤلاء الثمانية هم فى الحق ، زملاؤنا الروحيين حقا

كنا نجتمع في مسكني كل يوم ، نستعد للمعركة الاولى . وكنت في ذلك الحين الح على صاموبل ان يسعفنا بالمزيد من افكاره الجديدة .

ولم يضن علينا « صاموبل » بتجاربه ..

كنا مجموعة مختلطة من الناس ، منا ثلاثة من الموظفين المدنيين الذي كان الاشتغال بالسياسة محظورا عليهم ، وكان عليهم أن يمارسوا نشاطهم معنا في كثير من الحذر . ومنهم اثنان من المحامين تخرجا حديثا ، كانا يحصلان على معاشهما بشق الانفس في بلد أصبح فيه من العسير على أصحاب تلك المهنة اكتساب معاشهم .. ومن بينهم أيضا صحفي لاينتمي لأي حزب ومدرس وكاتب .

❊ ❊ ❊

وكنا نعتبر بالنسبة لمستوى الحياة في سونجهاي ، من أصحاب الدخول المحترمة في تلك المدينة

وعلى الفور ، اتفقنا على أن يدفع كل منا ١٠٪ من دخله في المصرف باسمي ، وبين حين وآخر ، كان البعض منا يوافينا بمبالغ من الاموال ، لاندري ما هو مصدرها ، ولم نجد من الضروري أن نسأل عن ذلك المصدر

وحتى يكون عملنا قائما على أساس متين ، اتفقنا على أن يتقن كل منا لغتين على الأكثر من اللغات الست التي يتحدث بها سكان « سونجهاي » وأخذنا ندرب أنفسنا على القاء الخطب السياسية باللغات المحلية التي نتقنها ، وكنا في ذلك الحين نتطلع الى الصحف ونتلو من فقراتها ، لندرب انفسنا على التفكير ولنكتسب القدرة على الافصاح عن أنفسنا ولنكتسب أيضا القدرة على الخطابة في الجماهير

لقد تعلمنا في افريقيا ، ومنذ ازمان بعيدة أمورا لم يصل الى كشفها الأوربيون الا منذ زمن قريب وهي : ان العقل البشري له سلطان لا حدود له على الجسم ، ومثال ذلك اننا نعلم ــ مجرد العلم وليس على سبيل الاعتقاد ــ من تجاربنا الشخصية ، انه من الممكن أن نسبب المرض أو الموت لشخص ما ، دون أن نلجأ الى

وسائل مادية أو كيميائية ، وثمة ثلاثة طرق ، من السهل وصفها وان كان ليس من السهل ممارستها ، لتحقيق ذلك الغرض

اولها : أن تحمل ضحيتك على الاعتقاد بأنك تملك القدرة على الاضرار بها .

وثانيها : أن تحمله على الاعتقاد بأنك ترغب فى الاضرار به .

وثالثها : ان تقوم امامه بتأدية بعض الاعمال التى ترمز الى اللعنات التى ستصبها عليه .. وسترى بعد ذلك ان عقله هو الذى سيتولى بنفسه اما جلب الامراض اليه ، أو التعجيل بوفاته .

اننا نؤمن بأن النجاح فى الحياة ، انما يكمن فى الايمان أكثر مما يكمن فى الذكاء والصناعة

- ٩ -

وتمر ايام قليلة على ذلك الاجتماع ، ويزورنى صامويل ومعه « كاى كاى » المحامى واحد العشرة المؤسسين للحزب ومعهما نسخة من « الديلى نيوز » قال صامويل :

ـ ان هذه الخرقة البالية اصبحت أكثر عونا لنا أكثر مما اذا كنا نملك جميع اسهمها .

ونظرت الى الصحيفة التى كانت تحمل على صفحاتها الأولى صورتى أنا وصامويل عند وصوله الى البلاد لأول مرة ، وعند استقبالى له عند هبوطه من الطائرة

كتبت الصحيفة تحت الصورة ، وفى صفحتها الأولى تقول : «أين هو الحزب الجديد ؟ » وقالت انها تذكر قراءها بأنها كانت قد نشرت من قبل بأن الحزب الجديد يسعى الى تحقيق هدفه القائم على الوحدة الآن ، ثم الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات

وقالت الجريدة بعد ذلك : انه قد تردد بأن مؤسسى الحزب ـ تقصدنى أنا وصامويل ـ ومعهما حفنة من المؤيدين لهما ، قد لجأوا الى القفارى والغابات فى التماس القوة الروحية ، بطرق ووسائل لم يكشفوا عنها ، لكى يضمنوا نجاح المغامرة الجديدة التى عقدوا العزم على المضى فى طريقها .

كانت عبارة القوة الروحية هى التى اثارت صامويل ؟ وجعلتنى أتطلع الى صامويل ، فى كثير من الريبة والشك .

فقلت له على الفور :

ـ لا أستطيع أن أفترض أو أعتقد بأنك قد لعبت دورك فى هذا النشر ..

نفى صامويل عن نفسه أن يكون قد قام بأى ...

ومهما يكن من أمر ، فلا يشك انسان فى أن نشر الخبر على هذه الصورة ، هو من الافكار التى جاد بها خيال صامويل وقريحته وعقله الخلاق لأن « القوة الروحية » كانت من التعبيرات التى دأب صامويل فى الأيام الأخيرة ، على استخدامها فى دعاياته

وعلى كل حال ، فقد ظهر لنا أن نشر الأخبار عن حركتنا على هذه الصورة يفيدنا كثيرا

وقبل ان يبدأ حزبنا هجومه الرسمى ، وجدت أن ثمة رسالة هامة علي أن أؤديها فقد أخبرنى والداى بأنهما عثرا لى على الزوجة المنشودة ، وان اجراءات الزواج الأولية قـد تمت بالفعل .. وتم زواجى من « فاطماتا »

وبعد زواجى ، وجدت أن نشـاط حزبنا الجديد ، يسـتدعى منى الكثير من الوقت والنشاط ، وبدأت فكرة الاستقالة من مهنـة التدريس تراود عقلى على الدوام . وكانت رحلاتى الكثيرة هى التى تجعل من المستحيل علي ان أؤدى عملى كما يرضينى

* * *

ومن الأنظمة التى قررناها أننا قمنـا بتقسيم « سونجهاى » الى عشرة أقسام ، وعهدنا الى كل واحد من مؤسسى الحزب العشرة برياسة كل قسم ، وأن يكون مسئولا عن مهمة زيارة رؤساء القبائل وزعمائها فى القسم الذى يشرف عليه خلال عام . وكانت خطتنـا تقضى بالتعرف على زعماء القبائل ، واطلاعهم على مشروعاتنا

وجعلنا من « ساجرسا » العاصمة جزءا مستقلا وعهدنا الى صامويل مهمة الاشراف عليـه . ولم يحل ذلك من اعترافنا منـذ

البداية . بأن هناك مهام أشد صعوبة تنتظر « صامويل » أكثر من المشاكل التي سنواجهها في أي مكان آخر . اذ كانت « ساجرسا » هي القطاع الذي كنا نتوقع أن تنظم فيه المعارضة صفوفها ، وهي أيضا مركز أصحاب المصالح المكتسبة التي سيجدون انفسهم ؟ تهددهم التطورات السياسية المنتظرة التي قررنا المضي في تنفيذها من أجل الوطن كله ، لا من اجل اصحاب مصالح معينة .

وظل صامويل على راس السكرتارية التنفيذية وكانت مهمته الاشراف على عمليات التخطيط الخاصة بخطوات الحزب

وبناء على اقتراحه ، قررنا تأجيل فكرة عقد اجتماع كبير للحزب وانصاره ، الى ان يتهيأ لنا العدد الضخم من الانصار الذي يمكنه أن يواجه اى تهديد نتعرض له .

وكنا ندرك أن اول اجتماع لنا ، سيكون مصيره الفشل ، اذا لم يحظ بتأييد الجماهير ، واذا اقتصر حضوره على المكافحين وحدهم .

وجريا على المثل المألوف الذي يقول بأن النجاح يعقبه النجاح ؟ فقد قررنا تأجيل أول اجتماع للحزب الى أن نضمن نجاحنا في بادىء الامر ، انصياعا لما كان « صامويل » يكرره على الدوام ، وهو لن تبدأ هجومك بالقاء كرات من الشيح ..

* * *

وبدأ اعضاء الحزب يتزايد عددهم بانتظام . وقد تضاعف عدد اعضاء الحزب في خلال ثلاثة اشهر وفي الشهر الرابع ، لم نطرد من عضوية الحزب الا فردا واحدا .

كان لكل منا طريقته الخاصة في الدعوة الى الحزب والدعاية له . ولكن الذي لا شك فيه ، هو أن الدعوة الى تقويض سيطرة الرجل الأبيض والقضاء عليها في خلال فترة محددة . وجدت استجابة قوية لدى المواطنين ، وفتحت أمامهم الأمل ، نحو حياة كريمة افضل ، ونحو المزيد من الوظائف . كما مضينا في دعوتنا في الاسواق وبين الاكواخ ، واكتفينا فيها بمجرد الدعوة ، وتعريف

الناس بالحزب وأهدافه ، ولم تسع الى ان يصبح جميعهم اعضاء فى الحزب .

وعندما قررنا عقد اجتماعنا الاول الكبير ، وجعل العضوية في الحزب مفتوحة أمام الجميع ، ادركنا ساعتها اننـــا بدانا نجنى محصولا قيما .

كان القطاع ، او « الدرك » كما كان يحلو لى ان اسميه ، الذى اشرف عليه يحتوى على اربعين مدينة وقرية . وكان مركز قيادتى فى « لوكو » وكثيرا ما كنت اشارك مواطنى فى تلك القرى حفلات رقصهم الوطنى .

وانى لأتساءل : ما هى المتعة التى نجدها فى رقصاتنا ؟ فى اعتقادى انها - الى جانب كونها نوعا من الفن - هى وسيلة لترك النفس ، أو بعض النفس ، على سجيتها ، فترة من الزمن .

وانى لأتساءل ايضا : اهى عمل يتفق مع الاخلاق او يجافيها؟ .. على أن ذلك كله لا يعنينى فى شيء ، ولكن الذى يعنينى هو اننى خلال تلك المرحلة ، استطعت ان أكتشف نفسى من جديد ، وأعيـد اليها « افريقيتى » التى اوشكت ان افقدها خلال السنوات الأخيرة فى اوربا .

وكنا نحرص ، انا وصامويل خلال الزيارات التى تقوم بها للقطاع او « الدرك » الذى تشرف عليه المقابر ، على ان نتعرف على تاريخ هؤلاء الموتى . وكان صامويل لايترك هذه الفرصة دون انينتهزها ، فاذا قمنا من مجلس من مجالس « ساجرسا » كان صامويل يحظى بكثير من المودة والمحبة .. وهو يرى الكثير عن تاريخ هؤلاء الموتى .

* * *

وفى تلك الايام ، ايقنت انه قد آن الأوان لأستقيل من وظيفتى ، لاستحالة التوفيق بين عملى وبين النشاط الذى يستلزمه جهـدى فى الحزب ، ووجدت أنه يجب ان يتجه نشاطى بأجمعه للتحدث الى الاعضاء الذين انضموا الى الحزب ، ثم اوشك ايمـانهم ان يهتز ،

وقررنا تخفيف القيود المفروضة على عضوية الحـزب ، وان يسمح بدخول المخطئين الى عضوية الحزب مرة اخرى ، بعد انقضاء عام على طردهم منه .

وحتى تلك اللحظة ، كان حزبنا مجرد منظمة خاصة ، وعندما وصل عدد اعضائه الى عشرين الف عضو اصـبحنا على ثقة بأن الاجتماع الكبير الذى قررنا عقده فى يوم الاحتفال بانشاء الحزب ، سوف ينجح نجاحا باهرا . وادركنا انه قد آن الاوان ليـكون للحزب فروعه . ولم نهتم كثيرا بالاعلان عن الحزب فى الصحف ، لان عزمنا على عقد الاجتماع الكبير ، جذب الينا مندوبى الصحف الذين سعوا لعقد الاحاديث الصحفية معنا .

ويجب أن اذكر هنا انه لم يكن هناك منافس لنا من الاحـزاب ما يمكن أن يطلق عليه اسم الحزب السياسى بالمعنى الصحيح ، اللهم الا حزبين اقليميين تركز اهتمامهما على المصالح الاقليميـة وحدها . ولم يكن ثمة أمل فى أن يقدر لهما النجاح فى البـلاد ولا يمكنهما العيش معا الى جانب حزبنا الذى اعلنا انه يمثل مصـالح سونجهاى بأكملها

والواقع ان ما قمنا بعمله كان شيئا جديدا بالنسـبة لبلادنا ، وعندما اتطلع الى تلك الايامالآن ، يتراءى لى اننا كنا نصنعالعجائب لمجرد تفكيرنا بمثل ذلك العمل.

* * *

كان يوم الاجتماع تجربة يستحيل ان انساها أبدا ، وكنا قد أرسلنا الى جميع الاعضاء ندعوهم الى الحضور الا اذا حال المرض بينهم وبين ذلك . وقلنا فى دعوتنا اننا نعلق أهمية كبرى على ضرورة تلبية دعوة الحضور هذه المرة . لأن الاجتماع الاول ، له أهميته الكبرى فى تدعيم كيان الحزب وفى ضمان نجاحه مستقبلا .

وقـررنا أن يكون الاجتمـاع فى « ساجرسا » على الرغم من النفقات الباهظة . واخترنا لذلك الاسـتاد الرياضى الذى يقع فى مشارف المدينة . ليكون مكان الميلاد الرسمى للحزب ، الذىسعينا

الى تهيئة الامكنة اللازمة لراحة الالاف الذين ارسلت اليهم الدعوة للحضور .

وثمة أمور أخرى كان يجب تسويتها قبل الاجتماع الكبير ، منها المقترحات التي ستقدم فى ذلك الاجتماع .. كرمز الحزب وشعاره والاسم الذى سيطلق عليه

وفى لحظات قصار انتهى رأينا جميعا ، نحن الأعضاء المؤسسين ، الى الاتفاق التام الكامل حول هذه النقاط جميعا .

فاتفق الرأى على أن يطلق على الحزب اسم « حزب الوحدة والتحرير » واتفق الرأى ايضا على أن يكون رمز الحزب ، ماسة تحيط بها هذه العبارة « وجوه كثيرة .. ولكن الهدف واحد » وكان هذا الرمز الاخير من بنات أفكار صامويل .

وظل الشعار الرسمى للحزب ، كما كان من قبل وهو : « الوحدة الآن .. ثم الحكومة الذاتية فى خلال خمس سنوات » .

* * *

وامضينا ذلك اليوم فى عمل دائب لم ينقطع . وبدأت الوفود تتدفق على مكان الاجتماع ، ووجدنا اننا احسنا صنعا عندما استأجرنا استاد المدينة لنتخذه مكانا للاجتماع . من أجل هؤلاء الاعضاء الذين وفدوا الى المدينة التى لا اقارب لهم فيهاولاأصدقاء والذى يصلح « الاستاد » لايوائهم .

وقررنا أن يستمر انعقاد الاجتماع ، جلستين متعاقبتين ، الجلسة الاولى فى مساء السبت ، والجلسة الثانية فى مساء الاحد الذى يليه . واخترنا لذلك أمسيتين تمنينا أن تكونا غير ممطرتين

وأخذنا ، نحن العشرة من « الحواريين » ــ كما كنا نطلق ذلك على انفسنا ــ نقدم انفسنا الى المجتمعين الذين لم يتعرف الينا معظمهم . اللهم الا عن طريق الصور الفوتوغرافية التى كانت تظهر فى الصحف .

وادركت مدى ما افدناه من اجادة كل منا لغتين على الاقل من لغة البلاد المحلية . فقد افادنا ذلك كثيرا خلال اجتماعاتنا بأعضاء الوفود .

وأدهشنا جميعا تلك البلاغة التى كنا نتحدث بها الى النـاس ومدى فاعليتها .

وقد يكون مرجع ذلك الى تدريباتنا السابقة التى كنا نمارسها فيما بيننا استعدادا لذلك اليوم المشهود ، ولكن الحقيقة ، ان تلك البلاغة وافتنا لأنها جاءت وليدة ذلك الاخلاص العميق للهدف الذى كنا نسعى اليه ، وهو الهدف الذى ربط بين قلوبنا جميعا .

* * *

واخذ صامويل يتحدث الى الحاضرين ، فتحدث عن الثروات المعدنية التى اخذ المستعمرون فى نهبها طوال تلك السنين . وكيف ان تلالا من الأرض أخـذ المستعمر يحركها الى النهر .. ثم تحملهـا السفن الى اوربا . وقال اننا قـد وقفنا هكذا ننظر دون ان نلقى بالا لما يحدث ، فمعنى ذلك ان آلاف التلال ستزول من البلاد .. وتساءل لماذا لا نقوم بأنفسنا باستغلال ثروات بلادنا ونتولى بيعها بأنفسنا فى مقابل الملايين من الجنيهات ؟

وتعالت اصوات المجتمعين تدوى بالموافقة على هذا الذى ابداه صامويل

صحيح اننا كنا ندرك بأن الأمر لن يكون بتلك السهولة ، ولكن واجبنا كان يقضى علينا بأن نعمل جميعا على أن يدرك الناس هذه الحقائق ، وأن يكونوا على علم بها للوقت المناسب .

وتدفقت علينا التبرعات ، خلال تلك الاجتماعات والذى اذكره أنه فى الاجتماع الثانى ، وهو الاجتماع الذى كان قاصرا على الأعضاء وحدهم . وقف صامويل ، وفى يده قطعة من الماس من التى تبرع بمثلها المواطنون ، وقال : لقد حدث يوما ما ان عثر على قطعة من الماس تزيد فى حجمهـا مرات ومرات عن هذه القطعـة ، وبيعت القطعة بآلاف الجنيهات ، وهذه القطعة ثبت انها القطعة الرابعة فى حجمها فى العالم ... ثم اين ذهبت تلك الآلاف من الجنيهات .. قيمة تلك الماسة ؟ . لقد ذهبت الى جيوب الرجل الأبيض . وكان

من الواجب أن تبقى فى البلاد ، لتساعد على بناء كلية جديدة على غرار هذه الكلية التى ترونها . وكان يجب أن تظل تلك النقــود فى بلادنا ، لنبنى بها المدارس ونشق الطرق ونقيم الجسور .

وانى اتساءل .. ولكن كيف استطاع هؤلاء البيض ان يسرقوا ثرواتنا ؟! وهناك جواب واحد على هذا السؤال ..وهو انهم تمكنوا من سرقة ثروات بلادنا ، لأننا شعب منقسم على نفسه . واذا استمر انقسامنا على هذه الصورة . فسنظل ابدا عاجزين عن ادارة شئوننا والتحكم فى ثرواتنا .. وسنظل نهبا للصوص والمستغلين .

ان ثروتنا ، وسعادتنا ورفاهيتنا فى هــذه القطع من الماس ؛ وليكن شعارنا جميعا ، تلك الوجوه المختلفــة ، التى تتطلع الى ذلك الماس ، والتى يجمعها هدف واحد .. هذه هى الرسالة التى تحملها الينا قطع الماس ، انها تدعو أصحاب الوجوه المختلفة الى الاتحاد ، والى وحدة الغرض والهدف .. هل هناك من يفكر فى شعار غــير هذا الشعار الذى اقترحناه ؟

ودوى المكان بكلمة لا ... والحق ان ما نطق به المجتمعون كان صوابا . فما أحوجنا الى الوحــدة على اختلاف وجوهنــا ، وهو النداء الذى كأنما كانت قطع الماس نفسها توجهه الينا اجمعين .وهى تشير الى الســعادة والرفاهيــة التى تكمن فى جنباتها ، والتى تدعو الى تحقيقها ، والبحث عنها ، والاستمتاع بها ، دون اللصوص والنهابين .

واخذ « صامويل » فى حماسة عارمة يلوح بقطع المــاس ، غير عابىء بنظرات رجال البوليس الذين وقف رئيسهم فى عربته ، داخل الاستاد يراقب الاجتماع . عسى أن تتاح له فرصة الحصول على ترقية جديدة ..

وانهى صامويل خطابه بأن أعلن ان الساعة تشير الى السادسة مساء . وان مدة الخمس سنوات التى قررها الحزب لحصول البلاد على الحكم الذاتى . تبدأ من تلك الساعة .

وتطلعت الى وجوه الحاضرين . ولمحت من بينهم وجه زوجتى وقد ظهرت عليه علائم الغبطة والارتياح

وعلى بعد أميال من مكان الاجتماع . كانت حجرة المخابرات في ادارة البوليس قد امتلأت عن آخرها . وهى تستمع الى التقارير التى تصلها عن طريق اللاسلكى من السيارة التى كانت تقف خارج مكان الاجتماع .

ويبدو أن المجتمعين فى تلك الحجرة كانوا يتساءلون فيما بينهم: هل يتوجهون لفض الاجتماع ؟ ويتعرضون لغضب الجماهير هناك ؟

يبدو ان الأوامر قد صدرت اليهم بأن يبقوا فى أماكنهم على زعم ان شيئا ما لم يحدث ، وانه لم يكن هناك اجتماع . ولم تكن هناك خطب نارية وقرارات تاريخية

ولكن .. كيف يستطيعون ذلك ، وستصدر الصحف فى اليوم التالى ، وستفيض صفحاتها بأنباء ذلك الاجتماع وصوره . وما حدث فيه من مخالفات للقانون ؟!

- ١٠ -

وبدأ رجال البوليس فى توجيه ضرباتهم ، ففى اليوم التالى بدأت قوافل سيارات اللورى تتدفق من « ساجرسا » بما تحمله من المندوبين العائدين الى مدنهم وقراهم .. كان صامويل فى طريقه الى قريتى « لوكو » التماسا للراحة بعض الوقت . وفوجئنا عند وصولنا الى حدود « ساجرسا » برجال البوليس يأمروننا بالتوقف

ويبدو أن الاوامر التى صدرت الى رجال البوليس . هى تجنب الاحتكاك بالجماهير ، والتحايل لالقاء القبض على « صامويل » بأن يتم هذا الاجراء ، فى الوقت الذى يكون فيه صامويل وحيدا ، وبعد أن تنفض عنه مواكب الجماهير التى بدأت فى مغادرة العاصمة الى قراها ومدنها .

وعند حدود « ساجرسا » كانت قوافل الجماهير لا تزال تمر من هناك ، ورأى ضابط البوليس المكلف بالقبض على « صامويل » انه لاقبل له بمقاومة غضب الجماهير وحماستهم ، اذا حاول اتمام مهمته فى تلك اللحظة فسمح لنا بالانصراف ..

وعند اقترابنا من ضواحي « لوكو » ؟ لحقنا هناك ضابط البوليس على رأس قوة من رجاله وقال : انه يحمل امرا بالقاء القبض على « صامويل » بتهمة حيازة قطعة من الماس ، بطريقة غير قانونية !!

لم يكن هناك في السيارة ، سواى وصامويل وزوجتي ، وبينما كان رجل البوليس يتلو امر القبض على « صامويل » حدثت مفاجأة اخرى ..

كانت زوجتي « فاطماتا » يغلب عليها طابع الهدوء . وكان من الصعب اثارتها ، ولم أسمع قط انها غضبت أو افلتت أعصابها . وكان يبدو في طباعها ، الفتور وعدم الاهتمام .

ولكن المفاجأة التي حدثت وادهشتني ذلك اليوم .. هو انه في الوقت الذي كان فيه ضابط البوليس يتلو ما جاء في امر القبض على « صامويل » اندفعت « فاطماتا » بكل قوتها نحو ذلك الضابط وامسكت فجأة بخناقه واخذت تصب الشتائم واللعنــــات على الضباط .

ثم كانت المفاجأة الاخرى .. فبعد أن تمكننا من فض المعركة ، وتهدئة « فاطماتا » وجه الضابط اليها تهمة مهاجمة رجال البوليس واقتيد « صامويل » و « فاطماتا » الى مركز البوليس . ولم يبدر مني وقتها اي نقاش أو كلام . ظنا مني بأنه سيتم الافراج عنهمـا فورا تلك الليلة .

ومضيت الى منزلي ، في لجة من الافكار المتضاربة ، اذ خيل لي ان هــذا الحادث هو اول نكسة تصاب بها حركتنا ، واقتــرح البعض ان نعمل على اجبار المسئولين بأن يطلقوا سراح « فاطماتا » و « صامويل » فوراً .

انتشرت انباء القبض على « صامويل » و « فاطماتا » هنا وهناك في مدن سونجهاي وقراها ، وهي الانباء التي خلفت وراءها مزيدا من كراهية الشعب للمستعمرين . وهي الكراهية التي اعتبرتهـا كسبا جديدا لنا ضد هؤلاء الذين عملوا على اعتقال « فاطماتا » و « صامويل » .

وكان من رايي على الدوام الا الجأ الى العنف وكنت أعلم مدى قوات الاستعمار الموجـودة في « سونجهاي » ومدى الاضرار التي يتعرض لها المواطنون اذا حاولوا تحدى هذه القـوات . وكان من رايي أن الالتجاء الى العنف وتحدي السلطات في تلك الظروف يعني ان يرتد سيف القاتل الى قلبه .

* * *

توجهت في صباح اليوم التالي الى مركز البوليس ، ووجـدت أن « صامويل » قد أعيد الى « ساجرسا » لمحاكمته هناك في « مقر الحادث » . وأن « فاطماتا » ستقدم الى المحاكمة في اليوم التالي .

كان واضحا ان قوات البوليس لا تزال في حالة اســتعداد للطوارىء ، انتظارا لما تسفر عنه التطورات الناشئة عن حادث القاء القبض على زوجتي وصامويل . وكان من الواضح أن قـرار اعادة « صامويل » الى « ساجرسا » جاء نتيجة لتقدير السلطات المسئولة بأن « ساجرسا » أكثر الاماكن اطمئنانا لحجز زعيم الحركة الجديدة فيها . بدلا من حجزه في « لوكو » وما يؤدي هـذا الحجز في تلك القرية ، من اخطار يتعرض لهـا رجال البوليس ، نتيجـة لغضب الشعب ، وتحرشه بقوات البوليس على قلة عددهم هناك .

وكان من الواضح أن قضية « فاطماتا » ستنتهي سريعـا بأن يحكم عليها بالغرامة .. قبل أن تخرج انباء حجزها ومحاكمتها من قرية « لوكو » وتنتشر سريعا في أنحاء « سونجهاي » .

وسمح لي الضابط الذي اشتبك مع زوجتي بأن ازورها انا و « كاي كاي » المحامي واحد العشرة « الحواريين » من مؤسسي الحزب وذلك قبل محاكمتها في الصباح التالي .

وابلغت المسئولين بأن « كاي كاي » سيتولى مهمة الدفاع عن زوجتي . والواقع أن غاية ماكنت اسعى اليه أن يكتفي «كاي كاي» بتقـديم النصيحة الى « فاطماتا » فقد كنت ارغب في الا تطـول المحاكمة ، وكنت ارغب في أن يتم كل شيء وفقا لرغبـات البوليس وهي أن تتم المحاكمة على وجه السرعة .

ودخلت أنا و « كاى كاى » حجرة اعتقال « فاطمـاتا » حيث واجهتنى هناك سلسلة من المفاجآت لم تدر فى حسبانى ابدا .

ادركت لدهشتى ان « فاطمـاتا » كانت على علم كاف بمـدى ما تستفيده سياسيا من حادث القاء القبض عليها هى وصامويل!

وفاجأنى تصميمها على الا يظل حادث القـاء القبض عليهـا محصورا فى نطاق القرية والا ينتهى هكذا بسـلام ، بل أعلنت تصميمها على ان يستغل الحادث على ابعد حد .

وفاجانى ان ترفع « فاطماتا » راية العصيان فى وجهى لأول مرة فى تصميم وعزم أكيدين ..

* * *

كان الوعد الوحيد الذى حصلنا عليه من « فاطماتا » هو انهـا لن تهاجم أحدا من رجال البوليس . اما ان تعترف بأنها مذنبة ، وهو ماحاولنا حملها على الوعد به ، فقد أعلنت أنها لن تفعل ذلك أبدا ، وهددت بانه اذا حاول البعض حملها على الاعتراف بأنهـا مدينة فى الجلسـة . فانها ستكون حرة فى ابداء مشـاعرها نحو الاستعمار والمستعمرين ، علانية فى الجلسة .

وكان معنى اعترافها امام المحكمة بأنها مدينة ، يتضمن اقرارها بأنها هاجمتـه . وهو ما اعترفت به فى التحقيق ، ويتضمن أيضـا اقرارها بأنها ارتكبت جرما ، وهو ماأصرت على انكاره والتسليم به بتاتا . وكان هدفنا من حملها على الادلاء بهذا الاعتراف . هو أن تنتهى المحاكمة سريعا وبلا تعقيد .

وأمضيت خمس عشرة دقيقة وانا اتوجه اليها بالرجاء لأول مرة فى حياتنا الزوجية . ولكنها أصرت على موقفها اصرارا عجيبا . وبدلا من الانصياع لأمرى ، حولت مجرى الحديث ، وطلبت منى ، كمـا لو كانت أمضت فى السجن مدة طويلة ، ان اسعى فى اتمام زواجى الثانى ، حتى أجد من يرعانى فى غيابهـا .. وطلبت منى ان تأتى « كانيدا » زوجتى الثانية المقترحة ، لزيارتها فى السجن بعد أن يتم زواجنا ، لابلاغها التعليمات الكاملة لادارة المنزل !.

وبدا لى أن « فاطماتا » صممت على أن تكون واحدة من هؤلاء الشهيدات فى سبيل الوطن . ولم اشأ اعتراضها ، فقد بدا لى أيضا أنها اصبحت تؤمن ايمانا عميقا ، بأنها تريد أن يستفيد الحزب من تضحياتها .

وبعد ساعات من اجتماعنا بها ، عقدت الجلسة لمحاكمتها ، وادهشتنا « فاطماتا » مرة أخرى ، فقد وقفت أمام القاضى لتلقى فى وجهه سيلا من اللعنات على الاستعمار والاستعماريين . وهى اللعنات التى اهاجت المترجم نفسه وهو يتلو بعض فقراتها ، واضيفت الى قائمة الاتهام تهمة أخرى ، هى تهمة احتقار المحكمة. وانتهت المحاكمة بالحكم على « فاطماتا » بالسجن لمدة ستة أشهر !.

وكان رد الفعل الناشىء عن تلك الميلودراما . هو نفس ماكانت تحلم به الممثلة الاولى فيها ، فقد امتلأت صفحات الصحف بصورة وقصص « فاطماتا » ضحية عملاء الاستعمار . وانتشرت أنباء قصتها فى انحاء « سونجهاى » واخذ دق الطبول ينتقل من قرية الى أخرى دون الحاجة الى الصحف والنشرات ، معلنا حادث « فاطماتا » بين القبائل المختلفة هنا وهناك .

ولست اشك فى أن قرى سونجهاى كلها قد استمعت الى قصة السيدة الافريقية التى لم تكتفى بمهاجمة رجال البوليس . بل أهانت القاضى الابيض ، فى نفس الجلسة التى عقدها لمحاكمتها .

* * *

واعلن « صامويل » من جهته فى الجلسة التى عقدت لمحاكمته أنه غير مذنب . وبعث الى برسالة جاء فيها : أنه قرر استغلال حادث القاء القبض عليه ليعيد الحزب من ذلك .

وقد ثبت أن قطعة الماس التى وجدت مع « صامويل » كانت فى حوزة احدى شركات التعدين الاجنبية . وعلى ذلك فقد قرر

صامويل بالاتفاق مع المحامى « كاى كاى » أن يثيرا فى المحكمة مدى شرعية القوانين التى تبيح للشركات الاجنبية احتكار استغلال المناجم والحصول على ثرواتها ، وهى الثروات التى لا يجوز ، طبقا لقوانين البلاد وعاداتها ، أن تنقل الى الخارج .

وتناولت الصحف الحادث ، من وجهات نظر مختلفة ، فمنها من وصف الحادث على انهمحاولة يائسة ، وان ابطالهايضربون رءوسهم عبثا فى حائط الاستعمار الصلد ، وقالت بعض الصحف أن « صامويل » و « فاطماتا » من الأبطال الذين يكافحون من اجل قضية ، ان قدر لها النجاح ، فستكون النتيجة أن يتغير النظام الاقتصادى فى البلاد .

والواقع ان تعليقات الصحف ، على هذه الصور المختلفة ؛ جعلتنى اعتقد بأن الحزب فى حاجة الى صحيفة خاصة به تعبر عن رأيه .

وانتهت محاكمة « صامويل » بالحكم عليه بالسجن لمدة عامين؛ اعقبها بكاء الحاضرين فى الجلسة والضجة الهائلة التى اعقبت نطق القاضى بالحكم .

وكان الجدال القانونى الذى دار فى الجلسة ، وتولى اثارته « كاى كاى » و « كونادى » المحاميان وعضوا العشرة «الحواريين» المؤسسين للحزب . حول هل يطبق القانونالمحلى لسونجهاىالذى يحرم نقل ثرواتها الى الخارج ، أو يطبق القانون المستورد الذى يبيح الاستغلال ؟

وانتهى الجدل القانونى بأن طبق القاضى الانجليزى القانون المستورد ، ضاربا صفحا بقوانين البلاد المحلية وعاداتها المقدسة الموروثة .

* * *

وكانت مدة السجن التى امضاها صامويل ... فترة من النشاط الدائب نتيجة للنمو المتزايد فى كيان الحزب ونشاطه .

وزار صامويل فى سجنه كثير من الزوار .

وانتخب صامويل ، وهو فى سجنه ، ووسط مظاهر الحماسة. رئيسا لفرع الحزب فى ساجرسا .. وانتخبت انا لرياسة الفرع فى قريتى « لوكو » وانتخب الثمانية الآخرون من مؤسسى الحزب .. كل على راس فرع الحزب فى موطنه

* * *

وبدات فى اعداد مسودة النظام المقترح للحزب فى البلاد لعرضة على مؤتمر الحزب عند انعقاده مستعينا فى ذلك بالنظم التى أطلعت عليها ، والتى تسير عليها الاحزاب الأوربية والدول الافريقية .

ويتم بنيان الحزب ويكتمل كيانه بعد انتخاب أول رئيس له منذ تأسيسه وهو المنصب الذى شرفنى به زملائى بأغلبية الاصوات والذى كنت أعتقد ان « صامويل » هو الذى سيحظى به .

وفى نفس الجلسة التى تم فيها انتخابى قدم لى « كاى كاى » رسالة كان صامويل قد ارسلها اليه . وطلب منه أن يسلمها لى اذا وقع الاختيار علي كأول رئيس للحزب . وفى تلك الرسالة سكب صامويل خالص تهانيه لى ، فى كأس صافية من الاخلاص والود والولاء .

- ١١ -

ربما كانت زوجتى الجديدة « كانيدا » تقل عنى سنا بنحو خمسة عشر عاما . وربما كان لها أن تزهو على « فاطماتا » بأنها اتمت تعليمها الأولى . هذا الى جانب ذوقها السليم فى اختيار ملابسها وعنايتها بزينتها .

ولم انقطع عن زيارة « فاطماتا » فترافقنى «كانيدا» ، وذلك خلال الاشهر الاولى من زواجنا .

كانت مظاهر السعادة تبدو على « فاطماتا » التى كانت أيضا خلال زيارتنا لها تبدى أشد الاهتمام حول الطريقة التى تدير بها « كانيدا » شئون المنزل . وكان ذلك الاهتمام يبين مدى اشفاقها

وعنايتها بى أكثر من اهتمامها براحتها وهى فى سجنها . ولم تنس « فاطماتا » ــ وهى فى سجنها ــ أن تحث « كانيدا » على أن تمنحنى ولدا ، ولا تدخر وسعا فى هذا السبيل . وقــد ادركت ــ خــلال زيارتى لفاطماتا ــ مدى احساسها العميق بعجزها حتى تلك اللحظة من أن تمنحنى ولدا . ولا شك أنها لمحت فى « كانيدا » قرب توفيقها بأن زوجها لن يظل هكذا بدون وريث . فان المنزل الذى لا يعــج بالاطفال . هو بلا شك منزل تسوده الاحزان .

* * *

وتزداد الشئون الخاصة بالحزب يوما بعد يوم ، فالانتخابات العامة مثلا ستجرى فى نهاية هذا العام . واخذت جهود الحزب تتجه الى كسب المعركة ، وبالتالى الى تقلد الحكم فى البلاد .. وقررنا الا نترك للحظ تقرير مصيرنا .

لقد كنا على ثقة من الفوز . وتمت عملية الترشيح للانتخابات بدقة وطبقا لتخطيط دقيق .

وبدأنا المعركة فى الاسبوع الذى أعقب انتخابى رئيسا للحزب ، وعلى الرغم من السلطة المباشرة التى منحت لفروع الحــزب فى اختيار المرشحين . وفى تقدير التفاصيل التكتيكية للمعركة ، فقد زادت الأعباء على مقر قيــادة الحزب ، اما لطلب المشــورة أو المساعدات المــالية . وفى وسط هذا كله . فقد كان علينا أن نعد البيان الذى سيصدره الحزب للدخول فى المعركة .

* * *

ولقد حرصنا على أن يكون بيــان الحزب حافلا بالحقــائق والمطالب العملية . وقررنا أن يظل الحزب عند بيــانه الصادر فى يوم تأسيسه وهو أن نمنح البلاد الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات من تاريخ تأسيس الحزب . وحرصنا أيضا على أنه ليس من الضرورى الا يتضمن البيــان وعودا وأنواعا من الاسراف فى الوعود فى سبيل الحصول على مزيد من التأييد .

ومن القرارات التى اصدرها الحزب فى مؤتمره الاول .. أن يمنح رئيسه مرتبا من امـوال الحزب . وأن يكون ذلك المرتبع مساويا لآخر وظيفة كان يشغلها ذلك الرئيس قبـل اختيـاره للرياسـة ، وطبقا لذلك القرار اصبح مرتبى فى الحزب لا يقل عن الف جنيه فى العـام الواحد . ولم يكن هناك ما أشـكو منه من متاعب مالية .

ونتيجة لتعيين سكرتير للحزب لمساعدتى فقد وجدت انه يجب أن يقتصر نشاطى على المشـاكل الرئيسية الخاصة بالتخطيط السياسى .

وقررت ايضا ان التمس الراحة والهدوء بالسفر الى منزل والدى قبل ان تبدا معركة الانتخابات . يدفعنى الى ذلك عاملان أولهما : اننى بدأت اشعر برد الفعل الشديد الناشىء عن انهماكى فى الاعمال ، وثانيهما : حاجتى الى الوقت الذى يتيح لى فرصة التفكير فى جو هادىء بعيد عن المضايقات .

* * *

وثمـة باعث آخر اعتقـد انه من البواعث التى دفعتنى الى السفر الى حيث يقيم والدى وهو ابلاغهما بما اعتزمت ان اسير عليه فى مستقبل حياتى ، والتماس النصيحة منهما من اجل ذلك المستقبل .

وقبل سفرى سألنى الصحفيون عن المكـان الذى سأسافر اليه . فكان جوابى : اننى سأسافر الى جهة مجهولة .

والحق اننى لم استهدف من تصريحاتى هـذه ان تحـاط تنقـلاتى بجو من الأسرار والاحاجى ـ ولو كان صـامويل مطلق السراح لكان أول من يوافق على هذا ـ ولكننى كنت أستهدف أن يظل مكان سفرى مجهولا .. وأن امضى بين اهلى فترة من الراحة والهدوء ..

* * *

وينتهز أعدائى هذه الفرصة فيروجون الاشاعات حول سفرى

ويزعم البعض أن أمي تحتفظ لي بقدر ممتلىء بمواد سحرية وأن ذلك القدر لا يرتفع ابدا عن النار . وانه في حالة غليان دائب مستمر في انتظار حضوري ليزيدني قوة وشدة ! .

* * *

قلت لوالدي .. لقد قرر الحزب انتخابي رئيسا له في الاسبوع الماضي ، ان زعماء الحزب يمثلون مختلف الطبقات في البلاد . وبعد البحث والتفكير قرر هؤلاء الزعماء أن أكون زعيما وقائدا لهم ، وسأتولى قيادتهم في معركة الانتخابات القادمة ، واذا قدر لنا النجاح ــ والله يعلم ذلك ــ فسيكون لنا أن نتولى قيادة الحكم في البلاد ..

قال والدي : ان الله سبحانه وتعالى جعلني اعتقد دائما بانك ستؤدي الخير كله لبلادك ولعائلتك ونحو نفسك . واعتقد بأن الله سبحانه وتعالى سيمكنك من ذلك .

وتطلعت الى والدتي . وادركت فجأة مدى تقدمها في العمر ، وتطلعت الى والدي . تلك الصورة التي كانت تمثل القوة والعظمة وقد بدت على وجهه صور الأعوام الماضية من العمل المضني الكادح في الارض والنهر . وبدا لي أن الأيام الاخيرة في أعمار الرجال ، كالدقائق الاخيرة في اليوم ، تظهر آثارها سريعا في افريقيا أسرع منها في أوربا . وبدا لي والدي ، وهو جالس على كرسيه ، أن عينيه الحادتين هما وحدهما اللتان تتمتعان بالحياة وتتحركان هنا وهناك .

* * *

وتطلعت الى والدتي . التي لا تزال تمارس تجارتها . والتي لا تزال تعلو شفتيها الابتسامة الهادئة الحزينة وتبدو عليها علائم الرضا والاطمئنان .

وتطلعت اليهما معا ، كأكبر رأس في العائلة ، ووجدت فيهما أنهما يمثلان بالنسبة لي اعلى وأحكم سلطة اعترف بها في الدنيا أمام الله .

وهكذا .. وفى هذا الجو العائلى الهادىء الهانىء ، أمضيت أسبوعا من حياتى . وقبل أن ينتهى ذلك الاسبوع تلقيت دعوة غريبة جاءتنى من قوميسير المنطقة المحلى يدعونى فيها الى زيارته .

* * *

كان جيم اندرسن قد بدت عليه علامات تقدم السن ، وبدا لى انه يعيش فى غمرة من خيبة الأمل ، بعد ثلاثين عاما امضاها فى الخدمة ، دون أن ينال ما يستحقه من ترقية .

حيانى اندرسن بحرارة ، وبدا لى أنه كان على الدوام يتتبع خطواتى فى الحياة . وبعد أن مضينا فى تبادل الأحاديث العادية ، عاد اندرسن فجأة موظفا فى خدمة صاحبة الجلالة البريطانية .. وقال : « يجب أن أهنئك بمناسبة اختيارك رئيسا للحزب يا سيد كامارا » .. فشكرته على هذه التهنئة ..

قال : لقـــد فهمت ان حزبك قد وعد بأن تنال البلاد الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات ..

فكان جوابى أن سألته .. هل تعتقد بأننا تجـاوزنا مرحلة التفاؤل عند تقريرنا تلك المدة ؟

قال اندرسن : ان هذا الأمل الذى تدعو اليه بحماسة ، هو من جهة أخرى يثير الرعب فى نفسى .. لأنك تعلم ان أقواتى من خبز وزبد ، قد لا تتاح لى فرصة الحصول عليها ، اذا قدر لهذه البلاد أن تحظى بالحكم الذاتى ، قبل ان اعتزل الخدمة .

فأجبته على هذه الدعابة بمثلها : أنا لا اعتقد بانه ليس هناك ما يدعو الى ازعاجك . اذا تم لنا الحصول على استقلالنا الذاتى . اذ لاشك اننا ســنكون فى حاجة الى امثالك لمدة طويلة فى الوظائف التى تحتاج الى خبرة خاصة على الاقل ، ثم لا تنس اننا سنعوض هؤلاء الذين سنستغنى عن خدماتهم او الذين يبــدون رغباتهم فى ترك الخدمة من تلقاء انفسهم .

قال اندرسن : دعنى أكون صريحا معك .. اننى اعتقــد بانك

تثير فى نفوس الناس آمالا كاذبة .. وفى اعتقادى انك اذا مضيت قدما نحو تحقيق هـذا الشـعار الذى رفعه الحزب فى المدة التى قررها . فانه من الحق علينا أن نعيـد النظر مرة اخرى خصوصا بعد انتخابك رئيسا للحزب .. ولنتسـاءل عما اذا كان من الحكمة أن تظل عند وعدك هذا ؟.

ولم اشأ ان أرد عليه فورا ، فقد كنت أحاول بينى وبين نفسى ان اقرر هل تراه يتحدث بناء على تعليمات تلقاها ؟.

قلت له : هل تسمح لى بأن اتوجه اليك بسؤال صريح ؟..

قال : تفضل ..

قلت : هل أفهم من حديثك انك تتحدث بوصفك القومسيير المحلى ؟ ..

قال : الحقيقة ان صاحب السعادة يبدى اهتماما بالغا بهـذا الموضوع ..

قلت : فى الواقع انه تبادر الى ذهنى فعلا ان المسألة كما تقول ثم ارجو أن اسأل .. هـل طلب منك سـعادته أن تبدى الى اية نصيحة .. ؟

قال : لا . ولـكن الحقيقة هى ان سعادته أصـبح على اعتقاد بأن تحديد مدة معينة لتحقيق الحكم الذاتى فيه من الأضرار اكثر مما فيه من الشرور .

قلت له : واسمح لى ايضا بان اقول انه من دواعى سرورى أن اتقبل هذا الاطراء ، وان يرى سعادته باننى استحق هذه النصيحة وارجو ابلاغ سـعادة الحاكم بأن نصيحته سـتعرض على اللجنة التنفيذية للحزب .

قال : ارجو الا اكون قد تجاوزت حدى ، وبعدت عن التبصر اذا طلبت منك ان تستخدم نفوذك فى اللجنة لتؤكد لاعضائها على الأقل مدى الخطورة التى شرحتها لك .

وشكت المقابلة على الانتهاء ، وحاول اندرسن استبقائى مدة اخرى ، ولكننى اعتذرت وقلت له اننى أفضل تمضية الوقت مع

والذى لامنحهما اكبر قدر مستطاع من وقتى وشكرته على حسن الضيافة وعلى ما ابداه لى من نصيحة .

قال اندرسن فى انتهاء المقابلة : ارجو الا تأسف يوما ما لانك رفضت هذه النصيحة .

***

وجعلت اتحدث الى نفسى قائلا : لاشك ان هؤلاء الرجال على اقتناع تام بأنه مما يضر سونجهاى أن تمضى سريعا فى طريقها نحو تحقيق الحكم الذاتى ، ولا شك أنهما لا يدركان ان كانا يعملان من اجل مصالحهما الخاصة ، أو من اجل مصلحة البلاد التى يمثلانها ولكن الذى لا شك فيه انهما يجهلان ان الحرية أحلى من النظام ومن الرفاهية لأنهما لم يتذوقا طعم الاستعباد من قبل .

ولم اسمع بعد ذلك اية كلمة او نصيحة من كائن من كان من ممثلى الحكومة الرسميين . وانتهيت الى الرأى بأنهم ادركوا اخيرا أنه لا جدوى من محاولة تحويلنا عن المضى قدما فى الطريق السياسى الذى نؤمن انه الطريق السليم القويم لتحقيق أهدافنا .

وصل الى علمى بعد ذلك أنباء المشاكل التىيعانيها فرعالحزب الذى تم تكوينه أخيرا بين عمال مناجم الماس فى المناطق البعيدة على الساحل ، وهى المشاكل الناشئة من صعوبة اختيار المرشحين ورؤساء اللجان ، وقررت نتيجة لخطورة الدور الذى ستقوم به نقابات العمال أن أقوم بزيارة تلك المنطقة فى وقت قريب ..

على انه لم يكن فى مقدورى ان اقوم بزيارة تلك المنطقة فورا نتيجة للموعد الذى حددته لمقابلة وفد حزب « الاتحاد الوطنى للمستعمرات » . وهو الحزب الذى يتمتع بالسلطة فى «سونجهاى» ؟ وهو الحزب الذى يقوم على أساس توحيد جهود المستعمر .. نحو غرض واحد

والذى اعلمه عن ذلك الحزب انه اصبح من الاحزاب التى

تؤازر الاستعمار فى البلاد ، وانه أدرك اخيرا ، بعد تلك القوه التى وصل اليها حزبنا ، ان ايامه أصبحت معدودة ما لم يقم بعمل سريع

وبدأ مستر رايت ، المتحدث باسم الوفد ــ وهو فى الوقت نفسه من اعضاء مجلس النواب فى سونجهاى ــ حديثه فقال : انه يتحدث باسم المسئولين فى حزبه ، واقترح فىحديثه ادماج الحزبين معا قائلا : اننا نقــاتل فى نفس الطريق ، ونقاتل أيضــا ذلك الذى تسعون الى قتاله ، وكلنا نرغب تحقيق أفضل ما يمكن لهذه البلاد العزيزة علينا جميعا .. فكان جوابى عليه اننى لا أشك لحظة فيما يقول .

ثم قال : ثم الا ترى معى انه سيكون فى وسعنا صيانة نشاطنا وطاقتنا لمواجهة العدو الحقيقى للبلاد بدلا من تبديد هذه الطاقات فى محاولة أن يمسك أحدنا بخناق أخيه؟.

قلت له : أن ذلك كله يعتمد اكثر مما يعتمد علىاتفاقنا أو عدم اتفاقنا على تعريف معنى «العدو الحقيقى» للبلاد .

ويبدو انه فوجىء بسؤالى .. اذ اتسعت عيناه . ثم عاد اليه هدوؤه ، وعاد يتحدث الي ويجيب على سؤالى فى نعومة وهدوء : أن الجواب على سؤالك واضح .. ان الجهل والمرض ، وذلكالدمار والتبذير الذى يلحق بمصادر الثروة والطاقة الذهنيه فى البلاد ، وسوء التغذية والفقر .. هذه هى العدو الحقيقى لسونجهاى .. كما أنها هى العدو الحقيقى لكل انسان .

ــ والاستعمار ؟ !.

كان ذلك جوابى عن سؤاله .

قال مستر رايت : آه . الاستعمار ..

وأجبته عن هذا : أجل . هل لك أن تقرر أيضا بأن الاستعمار هو العدو الآخر الذى يجب أن تقاتله ؟! .

***

بدأ مستر رايت يسترد أنفاسه من جديد ، ثم سكت وبدا كأنه يفكر ، وفجأة أشار الى بأن اتبعه الى «الفرانده» لنتحدث فى خلوة معتذرا لزملائه .

وبدا لى كان مفعول الشراب هو الذى افقد الرجل توازنه ؛ وافلت لسانه ، وهو يتحدث الى ذلك الحديث « السرى » الذى طلب منى ان يظل سرا دفينا بيننا لا يعلم به زملاؤه ، أو ربما كان يهدف من وراء هذه الثقة التى تحدث بها الى ، أن يغرينى على أن اقبل فكرة ادماج الحزبين معا فى حزب واحد . وعلى كل حال فان الذى سمعته منه فى تلك الخلوة كان بمثابة مفاجأة شديدة هزتنى هـــزا .. !

قال الرجل : اتفقت الحكومتان البريطانية وحكومة سونجهاى ـ صيانة لمصالحهما المشتركة ـ على أن تصبح «ساجرسا» ـ العاصمة ـ قاعدة بحرية للأسطول البريطانى . وقد جاء ذلك الاتفاق بعد حادث انفصال «سيمونز تاون» وضمها الى حكومة جنوب افريقيا .. وعلى ذلك فيجب التخلى عن اى امل أو رجاء فى أن تحظى «سونجهاى» بالاستقلال .

وبدلا من ذلك ـ كما يقول مستر رايت ـ فقد أعدت الحكومتان مشروع العشر سنوات للتنمية ، وهو المشروع الذى ستساهم فيه الحكومة البريطانية بمبلغ كبير من المال ، وفى مقابل ذلك ، سيسمح للحكومة البريطانية بأن تنشىء قاعدة بحرية للأسطول البريطانى وقاعدتين جويتين ، على ان تقام هذه القواعد فوق ارض سونجهاى وعلى أن تستأجر هذه القواعد لمدة غير محددة ، والى أجل غير مسمى .. وعلى أن يتاح لشعب سونجهاى فرص الاشتراك فى الأعمال الادارية والتشريعية فى البلاد ، وعلى أن يكون واضحا ، بأن أى تقدم نحو استقلال البلاد يجب أن يتوقف .

ومضى مستر رايت فى حديثه قائلا :

ـ وعلى ذلك فأنت ترى أن فكرة السعى الى الاستقلال التى يرغب شعب سونجهاى فى تحقيقها ، تعنى صرخات فى الفضاء .. وان الحكومة البريطانية لن تمنحه أبدا ذلك الاستقلال ، كما اننى ـ باخلاص ـ اعتقد بأنه ليس من صالح احد فى هذه البلاد أن يسعى لتغيير هـذا الوضع .. ثم يجب أن تفهم بأن حديثنا سرى للغاية وانه يجىء من قلب مفعم بالاخلاص نحو هذه البلاد ..

لقد اذهلني هذا الحديث ، أذهلتني هذه المساومات التي تعقد بين الحكومتين ، وادركت وقتها انه اذا تم عقد مثل تلك الاتفاقية فان الموظفين البريطانيين في سونجهاى ، من الحاكم العام ، الى اصغر موظف منهم ، سيجدون من واجبهم أن يبقى الحزب السياسى الذى منح حكومة صاحبة الجلالة تلك الثروة التى لا تقدر فى الحكم ؛ ولا شك أن الحكومة تملك الكثير من الوسائل التى يمكن أن تؤثر بها فى نتائج الانتخابات المحلية والانتخابات العامة على السواء .

وعلى هذا الاساس ، فقد سعى مستر رايت ليعرض علي فكرة ضم الحزبين فى حزب واحد ، بعد أن أدرك هو وزملاؤه مدى الأخطار التي سيتعرض لها حزبه ازاء تلك القوة المتزايدة التى بدأ حزبنا يكتسبها كل يوم ، وكانت غايته أن يتم الاندماج ، وان نتخلى عن مطالبنا ، وان تتاح لنا فرصة الاشتراك معهم فى الحصول على الوظائف السياسية .

وظل رايت فى مكانه ينتظر جوابى ، ثم قال :

ــ ليس ثمة ما يدعوك لأن تجيب على اقتراحى بالرفض أو القبول .. وليس هناك ما يمنع من ان تبحث الموضوع مع زملائك فى الحزب .. واخيرا ، يبدو لى أننى أصبحت فى حاجة الى ان اغفو برهة .. والذى ارجوه ان يصلنى ردك غدا .

وانتهت الزيارة ، واستقل بعدها « رايت » وزملاؤه السيارة فى طريقهم الى الفندق .

وفى اليوم التالى ، ابلغت «رايت» انه لا يمكننى حتى مجرد التفكير فى عرض هذه الفكرة على زملائى .

***

وجاء موعد زيارتى لمنطقة مناجم الماس لتسوية الخلافات الناشبة بين أعضاء فرع الحزب من العمال هناك ، وتوجهت الى «ساجرسا» أولا بطريق السيارات لزيارة «صامويل» فى سجنه ومنها على ظهر لنش بحرى الى منطقة المناجم حيث انتهيت من

تسوية الخلافات بين أعضاء فرع الحزب من العمال هناك . ورأيت ان ازور احدى الجزر النائية ، قبل عودتى الى « لوكو » ، وبعد انتهاء الزيارة ، مضى بنا « اللنش » الى لوكو .

سبقنى زملائى فى طريق عودتهم ، نقلتهم مجموعة اللنشات التى كانت تضم أفراد الحزب بعد تسوية الخلافات الناشبة بين العمال من افراد الحزب فى منطقة المناجم .

وبقيت وحدى فى « اللنش » لانجاز بعض الاعمال ، يرافقنى « كواكى » سائق سيارتى الخاص الذى كان قد مضى على عمله معى فى ذلك الحين ستة أسابيع .

لم يكن « كواكى » موضع شكى وارتيابى ابدا ، وقد حدث فى مساء تلك الليلة ، وفى الوقت الذى كان فيه « اللنش » يقطع البحر فى طريقه الى « لوكو » ، وبينما كنت أحاول قراءة احدى الصحف حدث أن توقف « موتور » اللنش فجأة .

ناديت على « كواكى » وسألته : ما الخبر ؟ .

فقال : ان الآلات توقفت عن العمل ..

فطلبت منه ان يسرع فى اصلاحها ، فأجابنى بلغته الانجليزية الركيكة ، وبصوت بدت فيه نغمة غريبة : انهم قد فقدوا الأمل فى اصلاحها .

واخذت الامواج تتقاذف اللنش والأمطار تنصب عليه مدرارا .. وساورتنى المخاوف ، من الصخور والتماسيح والموت غرقا .

وتطرق الى سمعى اصوات الأحاديث التى كانت تدور بين السائق « كواكى » وبين عمال اللنش ، وعاد الى « كواكى » وعلى وجهه علائم الكآبة وحاول حملى على ترك غرفتى والبحث بنفسى عن اجهزة اصلاح اللنش .

تبادر الى ذهنى لأول مرة ان « كواكى » هو وزملاؤه يحاولون

ابتزاز اموالى .. فقلت له ان يبلغ زملاءه بأننى اعدهم بمكافأة مجزية اذا تمكنوا من توصيلى الى الشاطىء فى خلال نصف ساعة.

واجابنى بأن ذلك لن يكون ، ثم كشف القناع عن نفسه اخيرا.

قال « كواكى » : ان مستر رايت هو بمثابة الأخ لى .. واذا وعدت بأنك ستساعده وتوافق على رأيه ، فسنعمل على انقاذك .

اذن فهذه هى الخيانة ! واذن فقد قرر مستر رايت هو وزملاؤه اجبارى على الخيانة ، واتخذوا من هذا السائق ومن ملاحى اللنش ادوات قذرة لبلوغ اهدافهم .

وذكرت « لكواكى » مدى ثقتى به ، وهى الثقة التى حدت بى الى ان اختاره للعمل معى . وقلت له ان حياتى - بوصفه سائق سيارتى الخاص - كانت رهن يديه كل يوم وانه لم يفكر قط فى خيانتى أو الغدر بى ، وسألته ، ما الذى دعاه حتى ان يلجأ الى هذه اللعبة القذرة وانا الذى منحته ثقتى ؟.

فلم يجب ..

وطلب منى « كواكى » التوقيع على ورقة كان يحملها وسألته عن نوع تلك الوثيقة ، فقال انه لا يعرف القراءة وانه اذن لا يعرف محتوياتها ، فطلبت منه أن يسمح لى بقراءتها ، ولكنه اجاب بأن الرجل الذى كتب الوثيقة ، اشترط أن أوقع عليها دون ان اقرأها.

وتبادر الى ذهنى انه تعهد كتبه رايت يتضمن قبونى ادماج حزبه بالحزب الذى أنا رئيسه ، وقلت فى نفسى انه لا يضيرنى أن أوقع عليه الآن . ثم اعلن بعد ذلك اننى وقعت عليه تحت تأثير الاكراه .. ثم دار بذهنى بعد ذلك انها وثيقة من طابع آخر .

وبدا لى أن التعليمات الصادرة الى «كواكى» هى ان يسعى للحصول منى على وعد شفوى بأن اعمل على ضم حزب رايت الى حزبى ، ولا شك أن « كواكى » كان يعلم مدى تمسكنا فى بلادنا بالوعد الذى ننطق به . على انه لا يلح فى الحصول منى على هذا الوعد ، ولكنه الح على أن أوقع على تلك الوثيقة التى لا يعرفها

أحد منا ما تحتوى عليـــه ؟ لجهله بالقراءة أولا ولأن التعليمـات الصادرة اليه تحظر على الاطلاع على محتوياتها .

وسألته مرة أخرى : ولـكن اذا كنت لا تعـــرف القراءة .. فـكيف يتسنى لك أن تتأكد بأن توقيعى على الوثيقــة ، هو نفس توقيعى الصحيح ؟ .

وفى الحال ، سحب « كواكى » من جيبه الخلفى بطاقة مصلحة العمل ، وفى سكون وصمت ، بسط الجانب الآخر من البطاقــة ، وأشار الى ما أدركت انه توقيعى !

ثم قال : ان الانسان هو الذى يعلم أخاه القراءة والكتابة .. ولكن عين الله هى التى تهــدينى الى أن أتطلع الى التوقيعين ، وهى التى تخبرنى وتعيننى على التأكد بأن كليهما توقيع لشخص واحد !

واذن فقد كان «كواكى» يحمل معه صورة من توقيعى ، واذن فقد أعدت الخطة بإحكام واتقان .

وفى لحظات ، كان على أن أتخذ القرار الأخير ، وتوالت الأفكار على خاطرى سريعة متعاقبة .. من السهل أن يفقد الانسان نفسه فى «سونجهاى» دون أن يدرى به أحد . فى وسط ذلك التيار العارم من الناس .. اننى لا أجيد السباحة ، كما اننى أعلم أن «كواكى» يجيد السباحة اجادة الاسماك لها .. ومن الممكن تركى على ظهر اللنش حتى تبتلعنى المياه فى جوفها .

هذه هى الهواجس التى راودتنى قبل أن أتخذ قرارى الأخير بالتوقيع على تلك الوثيقة المجهولة .

واستقر رأيى أخيرا ، وقلت لـكواكى !

ـ حسنا يا كواكى .. هات الوثيقة .. سأوقع عليها !

وبدت على كواكى علائم الفوز .. ثم قال :

ـ هل تعدنى ياسيدى بأن يظل هذا الذى حدث سرا لايذاع ؟

ـ اجلْ . هذا وعد منى بذلك .. كان هذا جوابى عن سؤاله.

وتحدثت الى نفسى على الفور . أنت من الغباوة بمكان ياكواكى اذا دار فى خلدك اننى ـ سواء كنت افريقيا أو غير افريقى ـ سأحتفظ بوعدى هذا لك .

وتركنى « كواكى » الى حجرة تشغيل اللنش الذى وصل بى الى الشاطىء ، دون ان يظهر أثر لكواكى ، الذى اختفى فى ظلمات الميـــاه .. !

•

- ١٢ -

كتمت سر هذا الحادث عن كل انسان الا « صامويل »وقررت دعوة « كاى كاى » المحامى واحد الاعضاء « الحواريين » الذين اسسوا الحزب . ليلحق بى فى منزل صامويل . حيث كنت اقيم هناك . حيث نتوجه معا الى ادارة البوليس لابلاغها بالحادث . اذا وافق « كاى كاى » على ذلك .

ويبدو أن قرارى جاء متأخرا .. ففى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم . ظهرت الصحف وهى تحمل انباء مشروع مستر رايت . بشأن ادماج الحزبين ، ووعدت القراء بأنها ستنشر فى اليوم التالى صورة فوتوغرافية عن رسالة موافقتى على ذلك المشروع .

واجتمعت على الفور بأعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وابلغتهم القصة بحذافيرها . واعلن الاعضاء على الفور موافقتهم على كل كلمة جاءت فى القصة ووجدنا انه من اللازم ابلاغ فروع الحزب بحقيقة الحادث والى المرشحين والناخبين على وجه السرعة .

وبحث صامويل عن « ميكانيكى » اللنش الذى قرر بدوره انه لم يسمع شيئا . وانه كان مشغولا باصلاح الموتور . وانه لم يشاهد ،لم يسمع شيئا غير عادى وهو على ظهر اللنش !

وقررنا البحث عن « كواكى » . ثم وجدنا أن العثور عليه فى هذه المدينة الواسعة من الصعوبة بمكان .

وتركت صامويل وكاى كاى فى ساجرسا واتجهت بدورى الى « لوكو » وابلغتنى « كانيدا » ان « فاطماتا » تريد رؤيتى على وجه السرعة ، فلم أتوان ، وكان أول ما قالته عند رؤيتى لها ان أصف لها ملامح « كواكى » وعندما انتهيت من وصفه لها . قالت انها تعتقد بأنه موجود فى « لوكو » وقالت انها شاهدت شخصا تنطبق عليه هذه الاوصاف . وانه احتجز فى مركز التفتيش الجمركى حيث عثروا عليه مخموراً .

* * *

وبعد مرور ستة أشهر على هذا الحادث أصبحت رئيساً للوزارة وزج « كواكى » هو واثنان من زعماء حزب الاتحاد الوطنى للمستعمرات .. فى السجن بعد اكتشاف المؤامرة الدنيئة التى حاولوا بها خداع الشعب باكراهى على التوقيع على وثيقة ادماج الحزبين قسرا .

وكانت مدة العقوبة المقررة على صامويل وفاطماتا قد انتهت وأفرج عنهما . وكانت أنباء حمل « كانيدا » قد ملأت « فاطماتا » بالسعادة .

وحان موعد الانتخابات العامة فى البلاد . وهى الانتخابات التى أسفرت عن فوز اعضاء الحزب بالاغلبية . والتى وقف رجال الحكومة فيها ضد الاوربيين . خلال تلك المعركة . وهم يراقبون افتتاح الباب الذى يدركون بأنه سيأتى اليوم الذين سيخرجون فيه حتما .. ليدخل منه أصحاب الحق الشرعى من أهل البلاد .

* * *

وعند اعلان نتائج الانتخابات فى « لوكو » أسرعت على الفور فى طريقى الى « ساجرسا » حيث وصلتها عند شروق الشمس، وكانت المدينة خالية من الناس فى حين أن مراكز اعلان النتائج كانت تعج بهم .

وفى ذلك المساء عندما اجتمعنا فى منزل « صامويل » بحثنا فيه تشكيل الوزارة ووضع الخطوط العريضة للمشاكل السياسية

التى نعلم بانها من المشـــاكل العاجلة الملحة . ووجدنا بعــد ظهور النتائج الاخيرة للانتخابات . اننا حصلنا على ثلثى مقاعد مجلس النواب على الاقل .

وبعد ظهر اليوم التالى . دق جرس التليفون فى مكتبى وقال صامويل انه يراهن على أن المتحدث هو « الوزير الخاص » ولم يخسر صامويل رهانه ..

* * *

ودخلت لأول مرة منزل الحاكم العام . وعادت بى الذاكرة الى تلك الاعوام السحيقة . وقت ان وفدت الى « ساجرسا » وانا طفل صغير اتحدث الى رجال حرس القصر ولا اجرؤ على الاقتراب من ابوابه . شأن كل طفل صغير وفد من الغابات ليشاهد ذلك البناء الشامخ لأول مرة .

وتناول الحديث الذى دار بينى وبين سير هوارس مونتاى بيدبوره .. تشكيل الوزارة والتعينات الاخرى . وقد أبدى الوزير الانجليزى موافقته على مقترحاتى فورا . وتركنـا التفـاصيل الاخرى . على ان تبحث فى وقت آخر . وتركت قاعة الاجتماع الى منزل صامويل لابلاغ زملائى بما حدث .

ربما كانت اللحظات التى نضيق بها جميعا اشد الضيق .هى اللحظات التى ندعى فيهــا الى حضور المؤتمرات الدوليـــة .. المؤتمرات التى تتناول بحث الشئون الفنية الخاصة . كشـئون الابحاث الطبية وتنمية وسائل صيد الاسماك ، بعكس المؤتمرات الدولية السياسية أو التى تبحث فى الشئون الدستورية والتى نجد فيها مطالبنا .

وكان الذى يضايقنا فى تلك المؤتمرات الدولية الفنية عندما تعقد جلساتها فى ساجرسا . ان تقتصر مجهودات الوزير المختص على القاء خطاب التحية للاعضاء فى حفلة الافتتاح .

وتلافيا لهذا . قررت أن يصـحبنى دكتـور بولنج كبير

المستشارين فى الشئون الطبية فى سونجهاى عنــدما دعيت الى حضور مؤتمر البحث فى أسباب زيادة وفاة الاطفال الذى تقــرر عقده فى جمهورية « كانم » والذى دعيت الى حضوره بوصفى وزيرا للصحة فى بلادى الى جانب رياسة الوزارة . والذى أتاح لى فرصة تحقيق أمنيتى فى زيارة الجمهوريات الافريقية المســتقلة حديثا .

* * *

عقدت جلســات المؤتمر فى مدينة « ليكفيل » ـ العاصمة ـ وأذكر بهذه المناسبة تلك الساعات المملة التى قضيتها فى احدى جلســاته وانا أستمع الى تلك « الرطانة » الغبيــة التى لم افهم منها شيئا .

واذكر أيضا أن وزيرا من وزراء جمهورية « كانم » انتحى بى جانبا فى تلك الجلسة . واسر الى بقوله انه يجب علينا ان نعهد الى « الخبراء » مهمة حماية مصالح المرشحين للانتخابات كمــا نعهد اليهم أيضا بمهمة توسيع الحدود الطبية بين الدول الافريقية .

* * *

دعانا رئيس وزراء جمهورية « كانم » الى تناول الطعام فى مقره الرسمى الذى لايبعد قليلا عن « ليكفيل » العاصمة .

وعندما كنا نتناول الشراب . فاجانا بقوله : « ايها السادة . احب أن اتناول معكم بالبحث موضوعا . ارجو أن يتم بحثه بيننا بصفة غير رسمية . دون أن تلتزم اى من الحكومات الممثلة فى المؤتمر بأى التزام . وأرجو أيضا الا تسجل المناقشات التى تدور فى هذا الاجتماع .

واحب أن أدخل فى الموضوع فورا وبدون مقــدمات وهو ان اتوجه اليكم بهذا السؤال : هل انتم الآن على استعداد انبدأ معا تخطيط واعداد مشروع « الولايات المتحدة الافريقية ؟ »

اننى اعتقد ــ بصراحة ــ انه لم يكن من المستطاع ان اتقدم بمثل هذا المشروع قبل الآن بسنوات . فقد كانت الدول الافريقية مشغولة فى تلك السنوات بترتيب المنزل واعداده . كما يقولون .

واعتقد الآن انه قد آن الاوان لبحث هذا الموضوع . بعد أن استقلت الدول الافريقية بأجمعها او اوشكت كلها على الاستقلال وبعد ان ازدهرت فيها الحياة . ويسودها الامن . ويحكمها النظام» .

وابديت له موافقتى الحتمية على مشروعه قائلا : « اننا بحثنا مثل هذا المشروع بصفة غير واضحة او مفصلة فى اجتماعات الحزب . واعتقد انه من المشروعات التى تضمن سلامة الدولة الافريقية الصغيرة » .

* * *

وفجأة . بحث رئيس الوزراء عن شىء فى مكتبه ، وكان ذلك الشىء رسالة مكتوبة قال عنها انها تستحق البحث ايضا ، وقال انها تحمل عنوانا من جوهانسبورج .

قال صاحب الرسالة موجها حديثه الى « عزيزى اوما جونز» رئيس وزراء كانم

« هذه صرخة الم من مقدونيا . انت تعلم كيف ان البيض هنا انتهكوا حرمة الدستور فى جنوب افريقيا . تمكينا لهم من استعباد السكان الوطنيين والملونين منهم .

لقد حاولنا أن نرد هذا الهجوم بالطرق الدستورية على أن الموقف ــ بدلا من السير فى طريق التحسن ــ اخذ يزداد سوءا يوما بعد يوم وعاما بعد عام .

لقد تم لكم السيطرة على بلادكم وان ابناء عمومتكم فى جنوب أفريقيا يتوجهون اليكم بالنداء لتذكروا انه قبل ان يجىء الرجل الابيض الى هذه البلاد ، لم تكن هناك تلك الحدود السياسية بيننا وبينكم . نتيجة لروابط الدم والجنس التى تجمع بيننا .

واذا لم تستمعوا الى ندائنا وتسرعوا الى مساعدتنا . فليس هناك من يمكنه أن يساعدنا سواكم .. وسنفقد الامل فى النجاة الى الابد .

ان ما نطالب به هو أن تتفق الاحزاب السياسية فى بلادكم على أن تقرضنا عشرة ملايين من الجنيهات . وسنستخدم هذه الاموال فى تمويل آخر معركة يائسة تهدف الى خلق دولة لاتعرف حدود اللون ولا قيود الجنس . ويعيش اهلها فى هذا الاتحاد فى مساواة سياسية حقيقية .»

نحن نعتقد بان جنوب افريقيا هى وطن البيض والملونين على السواء ونحن لانرغب فى طرد البيض او استئصال شأفتهم من البلاد

ان غاية ما يسعى اليه البيض فى هذه البلاد هو الحصول على الاموال واستغلال العمال ولا يرغبون فى الحصول على اصــواتنا ولا يرغبون فى مجتمعنا .

اننا نقترح القيام بحملة واسعة النطاق لتحقيق اهدافنا .

ان غاية ماتطالب به هو المال الذى سنستخدمه فى كفاحنا ونحن نعتقد بانه سيمكننا رد هذه الاموال فى يوم ما .

اننا نعتقد بان الله سبحانه وتعالى سيساعدنا وان قضــيتنا عادلة وان بلادنا العزيزة ستصبح ـ كما شاء الله ان تكون ـ المكان الامن لنا ولاطفالنا أيا كان لوننا وجنسنا .

واننا فى انتظار الرد » .

وطلب منا مستر أوما جونز ان نبدى راينا وقال احد المندوبين انه لايمكنه ابداء رايه قبل مشاورة حكومته .

والتفت الى مستر جونز فاجبته اننى فهمت الموقف على حقيقته .

وقلت انه كان يجب ان نستعد لانشاء الاتحاد الفيدرالى للدول الافريقية ولكن الذى اقترحه الآن هو الدعوة الى عقد مؤتمر لجميع الدول الافريقية ـ جامعة الدول الافريقية ـ .

ومددت اليه يدى قائلا .. هذا وعد منى اننى سابذل ما فى وسعى نحو انشاء الولايات المتحدة الافريقية . وبعثها الى الوجود وان أعمل على مساعدة اخواننا فى جنوب افريقيا ، لتحقيق الاهداف التى وردت رسالة حزب المؤتمر الوطنى الافريقى التى تليت علينا الآن . سواء وافقت حكومتى على ذلك أو لم توافق .

- ١٣ -

وانتهت جلسات المؤتمر وعدت الى سونجهاى لاقدم تقريراً عن اعماله الى زملائى . فى الاجتماع غير الرسمى الذى عقد فى منزلى . وهو الاجتماع الذى عرضت فيه عليهم رسالة جنوب

افريقيا . وهى الرسالة التى قراها علينا رئيس وزراء « كانم » فى ذلك الاجتماع .

وكما هى العادة . كان صامويل اول المتحدثين فأعلن تأييده لما جاء فى الرسالة . وقال ان الشعوب الافريقية ستسقط مرة أخرى الى الحضيض . اذا تهاونت فلم تساعد شعب جنوب افريقيا وتركته يسقط الى الحضيض .

وسأل احد الوزراء عن الكيفية التى سيوزع بها القرض المقترح على الدول التى ستساهم فيه . وسأل مندوب آخر عن رأى رئيس وزراء كانم فى ذلك الموضوع .

كان جوابى أن رئيس وزراء « كانم » لم يبـد رأيا فى ذلك الموضوع وانه ترك موضوع التفاصيل الى حين الاتفاق على المبدأ وانه أعرب عن أمله فى أن تكون هذه الخطوة مقدمة لتعاون اشد واقوى بين الدول الافريقية وانه أشار ايضا الى اقتراح عقد مؤتمر يضم جميع الدول الافريقية .. يتولى بحث تفاصيل القـرض المقترح . اذا وافقت جميع الاطراف المعنية على المشروع من حيث المبدأ .

قال صامويل : هل تسمحون لى بالسفر الى جنوب افريقيا لأتولى بنفسى هناك تنظيم عملية مقاطعة الوطنيين للمنـاجم التى يملكها البيض » .

والواقع لقد حملنا اقتراح صـامويل على انه دعابة ولو ان الفكرة نفسها تركت اثرها فى تفكيرى .

ووافقنا على ابلاغ رئيس وزراء « كانم » موافقتنا على مشروع القرض المقترح من حيث المبدأ .

* * *

احسست فجأة اننى فى حاجة الى التمـاس المشـورة من « فاطماتا » وحـدث اثنـاء وجودى معها ان وجهت الى هـذا السؤال .. هل تثق فى صامويل ثقة كاملة؟ .. فكان جوابى أن ثقتى

به لاحد لها . غير اننى سالتها بدورى أن تفصح لى عن سبب ذلك التساؤل .

فقالت : انه اذا كانت ثقتى بصامويل الى هذا الحد فانارادة الله تحتم على السفر الى جنوب افريقيا . على أن يتولى صامويل ادارة شئون الدولة فى غيابى .

وحتى تلك اللحظة كنت أرفض قبول ذلك الذى يبدو لى انه مصيرى . وهو انه من الواجب ان اسافر الى جنوب أفريقيا . لخدمة قضية المؤتمر الوطنى لجنوب أفريقيا ولاسعى سرا للكشف عن قاتل « جريتا » والواقع . لقد بدت لى هذه الرغبات على أنها رغبات سخيفة فقد تقلدت أكبر وظيفة يطمع فى تقلدها مواطن فى « سونجهاى » واتيحت لى فرصة اعداد حياة أفضل لبنى وطنى . لا عن طريق العمل وحده ولكن بتلك التصرفات التى ابديها والتى يرون فيها المثل الاعلى لحياتهم العامة والخاصة واصبحت انعم بحياة منزلية سعيدة .

ثم عدت الى نفسى . وجعلت أتصور مدى المعاملة التى بدت من « فاطماتا » وهى تقول لى انه لابد من عودتى سالما من جنوب افريقيا .

أن سفرى الى جنوب افريقيا . وعودتى منها ، ليس أمرا سهلا .. فهناك مظاهر العداء التى ستبديها حكومة جنوب افريقيا نحوى . وهناك أيضا تلك الاضطرابات التى قد تقع اثناء وجودى هناك .

وعلى الرغم من هذا كله . فقد شعرت فى قرارة نفسى بان هناك قوة . تفوق ارادتى وتتفوق على غريزتى . وتدفعنى الى أن أقوم برحلتى الى جنوب افريقيا . وهى قوة اشعر بأنه ليس فى مقدورى أن اقف امامها واقاومها .

لقد كان فى عزمى أن اعتزل الحكم . عندما تنتهى الدورة البرلمانية . على أننى عدلت عن رأيى اذ كان يجب أن احضر مناقشة الميزانية . وكانت هناك قرارات هامة تنتظر موافقتى ودراستى لها

وتمر الايام والاسابيع سريعاً . ويقترب معها موعد انعقاد مؤتمر جميع الدول الافريقية الذى تقرر عقده فى منواى «ليكفيل» فى « كاتم » وهو المؤتمر الذى أدهشنى فيه ان أوما جونز رئيس وزراء « كاتم » . التزم فيه هذه المرة ، موقف المتفرج فلم يشترك فى مناقشاته . بنفس الحماسة التى اشترك فيها فى مناقشات مؤتمر بحث الامراض الذى عقد قبل ذلك فى « ليكفيل » .

وقد حاولت مرة أن أتعرف منه عن أسباب هذا العزوف عن الحياة السياسية فقال أنه يؤثر ان يتولى الشباب شئون الدولة. وان حادث قتل زوجته قد غمره فى لجة من الاحزان ووجد نفسه أخيرا انسانا آخر .

* * *

واعلن صامويل فى المؤتمر عن رأى حكومة سونجهاى . وهو ان القرض المقترح . يجب ان ينال موافقة جميع الاحزاب السياسية التى تمثلها الحكومات المشتركة فى المؤتمر ، والا تقتصر هذه الموافقة على الحكومات وحدها .

وتساءل مندوب شرق افريقيا . هل سيعود المؤتمر الى الانعقاد مرة اخرى؟. وتساءل ايضا هل يوافق المؤتمر على تأليف لجنة دائمة تكون مهمتها الاعداد لعقد مؤتمرات أخرى كلما دعت الحاجة الى ذلك ؟..

وانبرى صامويل . وكان يرأس تلك الجلسة . وتساءل عن الحكمة فى عقد سلسلة من المؤتمرات واقترح تقديم اقتراح على الفور لانشاء اتحاد فيدرالى يضم الدول الافريقية .

وفى « ليكفيل » أبلغت « صامويل » بذلك السر الذى لايعلمه أحد سوى « فاطماتا » وهو اعتزامى اعتزال الحياة العامة بعد انتهاء فترة رياستى الحالية . ولم أشر له فى حديثى الى« فردريك» ومحاولة الكشف عن قاتل « جريتا » .

والواقع ان صامويل قابل نبأ اعتزامى اعتزال الحياة العامة وسفرى الى جنوب افريقيا بما آثار دهشتى . فلم يحرك ساكنا، واكتفى بسماعه دون أن يسألنى شيئا !!

والواقع ان صامويل كانت تبدو عليه علائم الصمت فى اكثر الاحيان ، وفى مقدورى ان ارى فى دخيلة نفسه معركة داخلية بشأن مسألة ما ، ولقد حاولت ان اتعرف على هذه المعركة والباعث عليها .. وسألت نفسي هـــل صامويل هو الآخر يعتقد بأن عودتى من جنوب افريقيا من الامور التى يمكن ان تصبح موضعا للشـــك .. وبدا لى انه عندما يفكر فى غيابى يرى كأنه أصبح كالكسيح الذى فقد عصاه التى يتوكأ عليها .. لم يسرقها منه احد ، ولكنه فقدها هكذا بمحض ارادته .

ومضيت فى اقناع صامويل انه قادر على القيام بمهمة قيـادة الامة فى غيابى وانه ليس هناك ما يخشاه .

***

وفى الصباح التالى ، ظهرت صورتى الفوتوغرافية على صفحات الصحف من القاهرة الى «كيب تاون» وفيهـــا ما أســفرت عنه قرارات مؤتمر شعوب جميع أفريقيا من تكوين لجنة تعاون دائمة دون ان نشير فى قراراتنا الى مشروع القرض المقترح وموافقـة الدول المجتمعة عليه من حيث المبدأ ، واشارت الصحف ايضا الى موافقة المؤتمر على التخطيط لمشروع انشــاء الاتحاد الفيــدرالى لحكومات افريقيا ، واشارت الى اختيار رئيس وزراء سونجهاى لرياسة اللجنة الدائمة ، وكانت هذه أول مرة يطالع فيها العـالم انباء عن سونجهاى .

وانتهت اعمال المؤتمر ، وعدت انا وصامويل الى «سونجهاى» .

* * *

بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بالمؤتمر الوطنى لجنوب افريقيا بشأن القرض المقترح لذلك المؤتمر .. وكتبت اليهم عما اذا كان المؤتمر ـ الى جانب المســاعدات المـالية ـ يرغب فى مساعدات اخرى ، لتدريب رجاله على اعمـال القتال وجاء الرد وهو يحمل الرفض المؤدب ..

وكتبت اليهم مـرة اخرى ، اطلب اليهم ان كانوا فى حاجـة الى خبراء يتولون اعمـال الاشراف على القرض وتنظيم عملية

الصرف ، فكان الرد هذه المرة ان المعركة التى يخوضها المؤتمر هى معركة جنوب افريقيا وحدها ، وانهم لم يطلبوا منا منحة ولـكنهم طلبوا منا قرضا وقالوا انهم يريدون أن تكون المعركة قاصرة عـلى جنوب افريقيا وحدها ولا يريدون أن تتورط معهـم دول افريقية اخرى ..

وقالوا ان حكومة جنوب افريقيا لاتستطيع ان تقوم باى اجراء ضدهم ، ما دام القرض الذى يصلهم ، انما يجىء من فـريق من الاحزاب السياسية الاخرى ، وانه اذا وضعتحكومة الاتحاد يدها على أى اجنبى ، يجىء الى البـلاد ضمن بعثـة من البعثات التى اقترح ارسالها ، فان انتقامها سيكون انتقاما لا حدود له .

وطلب من المؤتمر ايضا ان ابين لهم هل القـرض مشروط أو غير مشروط ؟..

كانوا على حق ، وكانوا بالفعل احرارا فى أن يخوضوا معركتهم بالطرق والوسائل التى يرونها اصلـح ، على أن هـذا الرفض من جانبهم كان يعنى ان آمالى فى السفر الى جنوب افريقيا ضمن اية بعثة مقترحة .. قد تلاشت ..

على أننى لم افقد الامل ، وقررت أن يكون سـفرى سريا .. وبدات التدريب على استخدام لغة «البانتو» وبدأت فى دراسـة جغرافية جنوب افريقيا ، ومنها الخريطة التى أعدها حزب المؤتمر وتبدو فيها مناطق سكنى الأجناس المختلفة فى جنوب أفريقيا .. وحفظت ما فيها عن ظهر قلب ، ووجدت اننى فى سبيلى الى مغامرة مجهولة ، وانه من الواجب أن ازود نفسى بكل سـلاح فقرات كل كتاب وقعت عليه عينى حول أفريقيا وما ورد عنها فى دوائر المعارف .. وحفظت بعض اغانيها الوطنية وألوان الرقص فيها .

وأذاع حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بيانا كاملا عن مشروعاته فى الوقت الذى أوشكت فيه فترة تقلد الحزب فى سونجهاى شئون الحكم على الانتهاء .. تمهيدا لاجراء انتخابات عامة جديدة .

ولم ينشر المؤتمر فى بيانه تاريخا محددا لتنفيذ قرار المقاطعة ولكنهم ابلغونى به ضمن رسائلهم السرية لى .. وكان الرأى الذى

اتفق عليه الزعماء هناك .. تنفيذ قرار الاحزاب تنفيذا محكما .. بحيث يتم اعلانه ساعة الصفر فى كل مكان ، وفى كل مدينة او قرية وفى وقت واحد .. على أن يعلن المؤتمر ذلك بقرع الطبول الذى ينتقل من مكان الى مكان ، معلنا بداية تنفيذ قرار المقاطعة الشامل .

وقبل أن أبدأ مغامرتى الكبرى ، اعلنت أننى سأقوم برحلة فى البلاد ، وغادرت ساجرسا الى «لوكو» ليبارك لى والداى هذه المغامرة ثم لاستوحى منهما رأيهما وما يحسان به وعما اذا كنت سأعود الى سونجهاى وتكتب لى السلامة مرة اخرى .. وهل ما سأقوم به هو الحق بعينه ، او انه ضلال يجب أن اتنحى عن السير فى طريقه .

***

أبلغت والدى عن مشروعاتى واننى فى طريقى الى بلاد اخرى فى افريقيا لأساعد اهلها على ان تتاح لهم فرص التحكم فى شئونهم .. كما أتيح لنا أن نتحكم فى شئون بلادنا ، ووافق والدى على مشروعاتى وقال انه على ثقة بأن الله سبحانه وتعالى سيتولى حمايتى ورعايتى ، واننى سأعود الى «سونجهاى» سالما باذن الله .

وفى ذلك المساء أذاعت حكومة جنوب أفريقيا بيانا كررت فيه دعواها السابقة وزعمت فيه انه لا توجد من الأسباب التاريخية التى يمكن معها اعتبار الملونين فى البلاد مواطنين فيها على اعتبار ــ كما جاء فى بيانها ــ ان هؤلاء الذين يقولون عن انفسهم أصحاب البلاد من المواطنين افراد القبائل .. انما وفدوا الى جنوب افريقيا فى وقت كان فيه السكان البيض يسكنون البلاد من قبلهم . ورد حزب المؤتمر على هذا البيان ردا حازما ، فند فيه تلك المزاعم . وقال فيه ان الحدود التى فرضتها حكومة الاتحاد ، حدود سياسية مصطنعة ، شأنها فى ذلك شأن الحواجز والحدود الأخرى التى فرضتها الدول الاستعمارية فى افريقيا .

وقال المؤتمر فى بيانه انه يستهدف القضاء على سياسة التفرقة العنصرية ــ ولا يسعى أبدا الى القضاء على اقامة البيض فى البلاد .

وقال المؤتمر في بيانه ان معركته تستهدف ضمان المساواة في الحرية والفرص والتعليم للجميع على قدم المساواة وان هـذه المساواة هي امر حتمي لا مفر منه في المستقبل ، وان اتباع سياسة غير هذه السياسة يعني الثورة واراقة الدماء .

ووجدت نفسي اقرا بيـان حزب المؤتمر مرة ومرات ، وخيل الى انني حفظته عن ظهر قلب ، وغمرني شعور بالرضى وانا اقـرأ لفظ « الوطن » وهو اللفظ الذي كان يعني الاحتقار عند ما كان يطلق على واحد من الملونين والذي أصبح الآن من الألفـاظ التي يتيه بها صاحبها فخرا .

ان الوطنيين في جنوب افريقيـا لا يزالون يمدون ايديهم الى ضيوفهم من البيض ، بانه لا عنف ، ولكن المساواة في ظل القانون.

- ١٤ -

كان اول ما فعلته في صباح اليوم التالي ان نزعت قطعة الماس المعلقة حول عنقي ، فقد قررت ان اتركها في سونجهاي لانني كنت أعتقد بانني سالاقي حتفي وهي معي . وكنت ارجو من اعماق قلبي أن أعود مرة ثانية الى بلادي وان لا تكون جنوب افريقيا مقبرتي .

قلت لوالدي في ذلك الصباح انني سابدأ رحلتي فورا ، وانني أترك معه قطعة المـاس ليحتفظ بها ، وهي القطعة التي كان قـد أعطاها لي قبل سفري الى بريطانيا وطلبت منه أن يحافظ عليهـا لانني سأعود مرة اخرى الى سونجهاي ..

وكتبت رســالة استقالتي التي اعلنت فيهـا انني استقيل لاسباب شخصية ، وابلغت زملائي انني لا ارغب في ترشيحي لأي منصب آخر سواء لعضوية مجلس النواب او لرياسة الحزب .

وتمت الاستعدادات النهائية للرحلة ، ووضعت مبلغ الخمسمائة جنيه التي كانت معي في حقيبة ملابسي التي كان قد تم تجهيزها . وتناولت غداء ثقيلا ، وانتهزت فرصة الفتور التي يشعر بها سكان

القرية بعد تناول الطعام ، وخلو القرية من معظم سكانها الذين راحوا يلتمسون غفوة قصيرة ، وقفزت من الحديقة الخلفية لمنزلنا وبدأت مغامرتي بالسير في طريقي الى ذلك المستقبل المجهول .

واتجهت في طريقي الى منطقة الحدود ، وعندما ايقنت انني اصبحت في امان ، اختفيت بين الاحراش ، واحرقت الثياب التي كنت ارتديها ، وارتديت ملابس اخرى وازلت شعر راسي التي بدت بعد ذلك في نعومة البيضة ووضعت نظارة سوداء على عيني . وعدت مرة اخرى الى الطريق ، واستوقفت سائق لوري ، ساومته وساومني . واتفقت معه اخيرا على ان يقودني الى المدينة التي تقع على الحدود ، وجلست بين الطيور والماشية على ظهر اللوري .

ويصل بنا اللوري عند نهاية رحلته الى احدى القرى التي اعلم من طابع بريدها الخاص ، اننا اصبحنا على مسافة ميل او ميلين من منطقة الحدود ، والتجيء الى احدى الاحراش التي تقع خارج القرية واتناول هناك بعض ما كنت احمله معي من الاطعمة الوطنية ، ثم احس بأن التعب قد استبد بي ، فأضع حقيبة ملابسي تحت راسي ، ويغلبني النوم ، واستيقظ عند الظهر وانا اشعر بأنني استمتعت بأحسن وابهج فترة نوم في حياتي .

وجمعت حاجياتي واتجهت لاختراق الحدود ، وهي حدود غشيمة بسيطة ، كان يقف عندها رجال البوليس ، ولما كنت لا احمل أوراقا تدل على شخصي ، فقد أدركت انه لا جدوى من الافلات من مراقبتهم ، وعدت ادراجي الى الغابة مرة اخرى

واستحال علي الافلات مرة اخرى ، ولكنني حاولت ومضيت في طريقي ، مستعينا بالبوصلة التي كنت احملها ، أتجنب السير عند الجسور ومعابر الانهار . ولست أخفي ان مشاعر الخوف كانت قد استبدت بي في ذلك المساء . والذي اخافني بصفة خاصة ان يلقى رجال البوليس من قوات سونجهاى القبض علي ، وبدا لي انه لو تم القبض علي ، فسيتبادر الى اذهانهم انني مصاب في قواي العقلية ولست من المخالفين للقانون ، والا فما هي الدوافع التي

تجبرنى – فى رايهم – على سلوك هذا الطريق على هذه الصورة »

كنت استعين ، خلال تجوالى فى الغابة ، باعواد الثقاب لتهدينى الطريق ، واشاهد فى ذلك الظلام الحالك ، وعلى بعد مسافة بعيدة نورا ينبعث من احدى المصابيح واشهد فى تلك الليلة ، وفى ظلام الغابة ، مغامرة مثيرة تدور حوادثها بينى وبين صاحب المصباح المنير تنتهى بأن اقترب منه ، والخوف يملأ قلب كل منا ، ثم نقف جامدين لا نتحرك ، انا يملأ قلبى الرعب . وهو بدوره لا يزال يحمل معه مصباحه . وفجاة يتبدل الموقف . وبعد ان القيت فى وجهه بكلمة واحدة ، كلمة تحية القيتها فى وجهه بلغة « الهوسا » بدت على اثرها الابتسامة تعلو وجهه ، وتوثقت على اثرها صلة عجيبة من الصداقة جمعت بيننا فجاة فى ذلك الظلام

وربما كان الباعث على توثيق هذه الصلة هو الفعل الناشىء عن الخوف الذى كنا نشعر به ، أو ربما كانت حاجة كلينا الى صديق، قبل أن يهبط علينا الليل ، هى التى دفعت كلا منا الى هذه الصداقة التى نشات هكذا فجاة .

* * *

قال لى صديق الغابة والظلام ، انه عاد فى التو من رحلة على الحدود . وعلى موعد سابق مع أحد الاشخاص ممن يشتغلون بمهنة بيع الماس ، وقال انه حدث خطأ فى ترتيب الموعد . وانه لم يقابل ذلك العميل . وانه لم يجرؤ على الانتظار مدة أخرى . وانه فى طريقه الى الجانب الآخر من الحدود . حيث يقوم هناك بادارة محطة بيع البترول . كستار يخفى وراءه عمله الاصلى ، وهو تهريب الماس .

واستعدت شجاعتى مرة اخرى وسالت صديقى .. لماذا يحتفظ هكذا بمصباحه مضيئا .. فيتيح لرجال البوليس فرصة رؤيته بسهولة ؟

وتوقف الرجل عن الاجابة مدة ، ويبدو انه كان يزن كلامى . ويبدو اخيرا ان اعتزازه بذكائه ، جمله يتخلى عن حيطته وحذره . قادنى الرجل بيده وجعل نتفحص المصباح ، واشار الى الموضع

الذى يملأ بالكيروسين وكشف عنه ، فاذا به منجم صغير من قطع الماس المختلفة الاحجام وقال الرجل . وهو يسر فى أذنى فى وسط تلك الاحراش :

ـ عندما يعثر عليك رجال البوليس فانهم يقومون بتفتيش حاجياتك وكل ما يجدونه من متاع فى مسكنك .. ولكنهم لا يفتشون أبدا المصابيح المضاءة !!

وقص على الرجل طرفا من تاريخ حياته ، واعترف بأنه يقوم بعمليات تهريب الماس منذ سنوات ، وانه اثرى منها كثيرا .

ولم أشأ أن أبادله ثقته بمثلها ، فزعمت له اننى فى طريقى فى مهمة عاجلة الى ميناء يقع على الحدود واننى لم أجد فسحة من الوقت لأحمل معى جواز المرور ، مما اجبرنى على المخاطرة بهذه الرحلة ..

وفجأة .. وعلى غير انتظار قلت للرجل :

ـ هل ترغب فى أن تبيع هذه الماسات لى ؟ فكان جوابه انه يرغب فى بيعها فعلا ، وانه لم يسبق له القيام برحلات فى هذا الاتجاه وهو يحمل هذا المصباح الثقيل الوزن وانه من أجل ذلك انتابه الخوف عندما رآنى واقفا كالشجرة لا اتحرك من مكانى .

وعرضت عليه على الفور أن أشترى منه المصباح نظير مائتين وخمسين جنيها تدفع له نقدا فى الحال .

وانتهت الصفقة ، وادهشنى ان عميلى الجديد لم يكف نفسه مئونة عد النقود ، تماما كما يحدث بين الاخوة الصادقين .

وأبدى لى شكره الفائق ، وقال انه لم يقابل عميلا مثلى من قبل ، ولم يتعامل أبدا بمثل هذه السهولة ، وفى مقابل ذلك المبلغ الضخم من المال

ثم سألنى هل احمل معى نقودا أخرى ، فأجبته باننى احمل مبلغا يساوى المبلغ الذى دفعته ثمنا لمصباحه وماساته . وأبدى لى استعداده لأن يقودنى الى الطريق الآمن المؤدى الى الحدود لمعرفته الكاملة بتلك البلاد ، موطنه الاصلى ، كما قال

وطلب منى أن أطفىء المصباح لأنه لو عثر علينا رجال البوليس ، فسيقومون بتفتيش الحقيبة

وبعد ست ساعات من السير فى الظلام وصلنا الى مشارف احدى

القرى التى تقع عبر الحدود، واستودعنى صديقى ومضى فى طريقه،
وحتى لا أتعرض لاخطار التفتيش ، أفرغت الكيروسين من المصباح ، وافرغت ما فيه من الماسات فى حقيبتى ، وألقيت بالمصباح فى عرض الطريق ولمحت لوريا ، استوقفته وحملنى سائقه الى اقرب قرية حيث عثرت هناك على منزل متواضع يمتلكه أحد أفراد قبيلتى ، وأمضيت عنده ليلتى وفى صباح اليوم التالى ، أغريت سائق سيارة البريد بالمال ، ليحملنى معه الى عاصمة تلك المنطقة

❋ ❋ ❋

قررت عند عودتى الى «سونجهاى» أن اسعى للاجتماع بصاحب المصباح المضىء صديق الغابة والاحراش واحدثه على مدى غباوته عندما توقف فى الطريق عند تلك القرية ، ولم يجىء الى العاصمة ليعقد بنفسه صفقة ماساته ! . فقد قبضت فى تلك المدينة خمسة عشر الف دولار امريكى ثمنا للماسات التى دفعت فيها لصديقى صاحب المصباح المضىء ، مائتين وخمسين جنيها استرلينيا !

أصبح لدى المال الكثير الذى يكفينى مغامرتى الجديدة واستبدلت ملابسى ، التى جعلتنى ابدو وكأننى قادم جديد الى المدينة ، من تلك الغابات المظلمة

وأيقنت وقتها انه قد تكون هذه هى الساعات الاخيرة لى فى هذه البلاد ، التى أستطيع أن استمتع فيها بالحياة قبل القيام بالمهمة الكبرى التى جئت من أجلها هنا ، فمضيت ليلتى ارتشف من مناهل الاستمتاع ما وجدت الى ذلك سبيلا .

وطرت فى اليوم التالى الى « جوهانسبورج » وبعد نزولى من الطائرة وبعيدا عن الاجراءات الرسمية ، سمح لى بأن ادخل اتحاد جنوب أفريقيا لمدة ثلاثة اشهر لغرض التعرف على البلاد ومشاهدة معالمها .

❋ ❋ ❋

ومضيت أسعى فى سبيل العثور على « فردريك » قبل أن يبدأ حزب المؤتمر الوطنى الافريقى اجتماعاته

واخيرا عثرت عليه فى أحد شوارع المدينة وتبعته الى النادى

الذى يقيم فيه ؟ وفى اليوم التالى تمكنت من العثور على وظيفة فى مطبخ النادى .

وحانت ساعة اللقاء ويبدو انه كان مخمورا جدا فلم يتعرف على ، وقد سمعته يتحدث الى مدير الفندق عندما رآنى قائلا له : « جو .. حدثنى . ما هذا العدد الهائل من الزنوج الذين تستخدمونهم كل يوم ؟ . ثم مضى قائلا : « واذا كنا نعلم انه سيأتى اليوم الذى سيدوسون فيه علينا بأقدامهم ، فلماذا اذن نملأ افواههم بالطعام .. يجب عليك أن تطرد هذا الزنجى فورا وتلقى به الى الشارع .. أننى احتاج الى المساعدة . وارجو أن تبعث لى بشخص آخر غير هذا الزنجى .. اننا لا نعبأ أن نغسل أطباقنا بايدينا ، كما اننا لا نرغب فى رؤية هذا الزنجى هنا غدا » .

والتفت الى زملائه فى النادى وهو يوجه اليهم عباراته الاخيرة ، الذين اعربوا بدورهم عن تأييدهم له فى رأيه

***

ومضيت فى عملى ، كأنى لم أسمع شيئا وقمت بتنظيف المائدة .

وخرج فردريك وهو يردد قوله موجها حديثه الى مدير النادى بأنه لا ينسى ما قاله . ويأمر بطردى فورا فى الصباح .

وخرجت ابحث عنه فى الشارع . ولمحته يتمايل من فرط ما أسرف فى الشراب ، وفجأة رأيته يتعثر ويتهاوى على نفسه فى الطريق ساكنا لا يتحرك فى بركة من الامطار التى كانت تتساقط بشدة

***

وبدأت أدوسه تحت أقدامى ، وفجأة ، دقت الطبول ، معلنة فى جنوب افريقيا أن ساعة الصفر قد حانت ، وان قرار المقاطعة قد بدأ تنفيذه وشعرت بالرثاء ، وليس بالكراهية ، نحو هذا الجسد الراقد فى عرض الطريق ، فتوقفت عن ايذائه ، وحملته برفق ليرقد فى أمان فى منزله .

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشـاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئـة بالاسماعيلية ـ الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثون جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد اقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتامين ابتدائى قدره خمسـة آلاف جنيه ولن يلتفت الى اى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتامين الابتدائى المذكور .



الدار القومية للطباعة والنشر